





كمال حسن على

من الحرب إلى السلام

لواء د/ جمال مظلوم



السلسلة الثقافية لطلائع مصر (٦٤)
يوليو ٢٠٠٩

قمم مصرية



كمال حسن علي

من الحرب إلى السلام





المجلس القومي للشباب

الإدارة المركزية للطلائع

السلسلة الثقافية
لطلائع مصر

المراسلات

المجلس القومي للشباب

شارع ٢٦ يوليو، ميدان سفنكس

تليفون وفاكس: ٣٣٤٦٧٣٦٧

Web: www.alshabab.gov.eg



رئيس مجلس الإدارة

أحمد أنيس

رئيس التحرير

ياسر رزق

مدير التحرير

عبد الناصر عيسوى

جرافيك

إسلام عيد

تنفيذ

حسام عنتر

كمال حسن علي

من الحرب إلى السلام

لواء د. جمال مظلوم

العدد ٦٤

من السلسلة الثقافية لطلائع مصر

صادر مع مجلة الإذاعة والتليفزيون

١٨ رجب ١٤٣٠هـ - ١١ يوليو ٢٠٠٩

مقدمة

للفترات الصعبة من عُمر الأمم رجالُها المخلصون، الذين لا يكُفُّون عن التفكير في حَلّ مشكلاتها، والعمل من أجل رفعة شأنها والانتقال بها إلى الأمام، بدلاً من الإحساس باليأس أو العجز عن السَّير إلى الأمام. ومن هؤلاء المخلصين الذين نذروا أعمارهم لخدمة مصرنا الحبيبة: كمال حسن علي، الذي تعدَّدت نواحي العطاء في حياته، بتعدُّد المهام التي أوكِلَتْ إليه، والمهام التي طُلِبَ منه تنفيذها، والإنجازات التي طُلِبَ منه تحقيقها، والآمال العظيمة التي كانت تراوده ليتحقق لبلده التقدم. فقد كان مسلَّحًا بالأمل، وبالعلم، وبالاستعداد للتضحية في سبيل بلده وأهله من المصريين. وقد جاء في مرحلة صعبة من مراحل تاريخنا المعاصر، فكان رجُل المهام الصعبة، في الفترة العسكرية من حياته، وما أعقبها من مراحل، حيث عمل رئيسًا لجهاز الأمن القومي المصري، ثم وزيرًا للدفاع، ثم نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للخارجية، ثم رئيسًا لمجلس الوزراء.

والصفحات القادمة تكشف عن جوانب حياة هذا الرجل، التي هي جوانب من تاريخ شعبنا المعطاء.

المؤلف

الفصل الأول
النشأة والسيرة الذاتية

نشأته وطفولته

ولد كمال حسن على فى ١٨ سبتمبر عام ١٩٢١ فى حى عابدين وسط القاهرة وتوفى فى ٢٧ مارس ١٩٩٣ عن عمر يناهز ٧٢ عاما.

ويحكى هو عن طفولته فى كتابه مشاوير العمر (أسرار وخفايا ٧٠ عاما من عمر مصر فى الحرب والمخابرات والسياسة) أنه تأثر بمحيط نشأته حيث عاش طفولته قريبا من القصر الملكى الكبير فى عابدين حيث استمتع برؤية العربات الملكية البراقة التى تجرها الخيول ثم سيارات الرولزرويس الحمراء فوق إطارات بيضاء بداخلها الأمراء والملك المهيب المحيا وتأثره بدقات الطبول القوية المنتظمة والتى كانت تستهوى وجدانه تصاحب أنغام المارشات العسكرية البديعة والطوابير المنضبطة عليها فرسان يشرعون سيوفهم اللامعة حيث كان يترقب خروجهم بانتظام يوم الخميس من كل أسبوع ثم كان يصلى الجمعة فى جامع قريب من السور الخلفى للقصر حيث كان به باب داخلى خاص يدلف منه الملك ليؤدى الصلاة مجتمعا مع أفراد شعبه.

كما عاش صباه وقت انتفاضة الشعب ضد الاستعمار فى منطقة عامرة بمظاهرات الطلبة فى الجامعات القريبة بالقرب من المدرسة الخديوية حتى حى المنيرة حيث يربض بيت الأمة بيت المرحوم سعد زغلول وهى القريبة أيضا من ميدان التحرير وقبل كوبرى قصر النيل كانت ثكنة عسكرية تشغلها وحدة عسكرية بريطانية كبيرة (كان القشلاق مقامًا فوق المساحة التى هى الآن مقر الجامعة العربية وفندق النيل ومعظم أرض ميدان التحرير) وكان أثناء سيره بجوار هذا المعسكر يزداد غليانا واندفاعا نحو المشاركة فى مظاهرات الطلبة ضد الاستعمار والتى أدت إلى المفاوضات المشهورة التى انتهت بإبرام معاهدة ١٩٣٦ التاريخية.

هواياته:

علاوة على مشاركته فى المظاهرات تعلق خلال نشأته بهوايتين محببتين إلى نفسه وهى القراءة والسباحة.

بالنسبة للقراءة فيذكر أن جيله كان محظوظًا مرتين، فهناك الكتاب وهناك الكتب، حيث جيل معاصر من الكتاب العباقرة الأفذاذ وهناك الكتب المجانية المتاحة أو الزهيدة الثمن التى تملأ مكتبات المدارس أو حتى التى تباع فى كل مكان حتى على الأرصفة والأسوار.

أما عن الرياضة فقد آثر السباحة، فكانت مسيرته اليومية الآمنة من

المنزل فى حى عابدين إلى حمام وزارة المعارف (التربية والتعليم) فى نهاية شارع الملكة نازلي (رمسيس الآن)، والذى أزيل فيما بعد. ولقد استطاع بعد تدريب شاق أن يصل إلى بطولات السباحة على مستوى القُطر، كما التحق بفريق كرة السلة فى نادى الشبان المسلمين الذي لا يبعد إلا خطوات معدودة عن حمام الوزارة.

وكان ينظر إلى النادى على أنه دور تربوي تثقيفي حيث كان فرصة للاستماع إلى أفضل المحاضرات العامة التى يُلقيها كبار الكتاب والعلماء. وربما كان حبه للرياضة هو الذي جعله يتبنّى إقامة مركز للرياضات اليابانية فى مدينة نصر فى نهاية فترة حياته في أوائل الثمانينيات، والذي اشتهر فيما بعد عام ١٩٨٧ باسم نادي الزهور الرياضي ورأس أول مجلس إدارة للنادى، وها هو النادى شامخا سيظل يذكر اسمه مدى الحياة.

السيرة الذاتية لمشوار حياته:

لمن يطلع على سيرته الذاتية الموضحه سابقا يظهر له أنه شغل مناصب قيادية عليا، فبالنسبة للعمل العسكري نجد أنه شغل قيادات رئيسية، بدءًا من قائد فصيلة، ثم قائد سرية، ثم قائد كتيبة، ثم قائد أكثر من لواء، ثم قائد فرقة، وهذه الوظائف تحتاج لنوعيات معينة وصفات مميزة من الضباط من حساسية وجرأة لمن يشغل هذه

الوظائف، إضافة إلى ذلك فقد شغل وظائف رئيسية في قيادات عُليا مثل رئيس العمليات للقوات المصرية في اليمن، ورئيس العمليات في هيئة العمليات للقوات المسلحة. وهي وظائف أيضا تحتاج لصفات معينة من الضباط، أهمها القدرة على التخطيط والأداء. كذلك عمل في محور التدريب أيضًا، منها كبير مُعَلِّمي مدرسة المدرَّعات، وعضو هيئة التدريس في كلية القادة والأركان. وأذكر أنه في ذلك الوقت كانت كلية القادة والأركان تستقطب أفضل ضباط القوات المسلحة، وكل هذه الوظائف تعكس مواصفات وقدرات الفريق أول كمال حسن علي، خلال مشوار حياته العسكرية، والتي تخللها رئاسته لجهاز الأمن القومي (المخابرات العامة) قبل أن يتولى وزيرًا للدفاع، ثم انتقل بعدها في عهد الرئيس أنور السادات نائبًا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرًا للخارجية، ثم اختيار الرئيس محمد حسني مبارك له عام ١٩٨٤ لرئاسة مجلس الوزراء، حيث استقال عام ١٩٨٥ لأسباب صحية، وبعد ذلك بقليل تولى رئاسة البنك المصري الخليجي، حتى استقال منه أيضا عام ١٩٩١.

في أواخر عام ١٩٩٠، اشتد عليه مرض الروماتويد، الذي بدأ أولى مهاجماته لعظامه قبل ذلك ببضع سنين عندما كان يعمل وزيرًا للدفاع، مما اضطرَّه في النهاية إلى دخول مستشفى جورج واشنطن

الجامعي بالولايات المتحدة في مارس ١٩٩١، حيث أجريت له هناك عدة عمليات مُعقَّدة بالعُنق استغرقت ثماني ساعات ونصف الساعة تحت التخدير، قام الأطباء خلالها بإجراء عدة ترقيعات عظمية متشابكة استعانوا فيها بشرائح عظمية نقلوها إليه من بنك العظام.

بعد هذه العملية نصحه الأطباء بضرورة الاستقالة من كافة أعماله والخلود للراحة تجنبًا لمسئوليات العمل اليومي. بعد حياة ملأها العمل الدءوب المستمرّ لأكثر من خمسين عامًا، إزاء اشتداد الآلام المتواصل اضطر للإذعان إلى نصيحة الأطباء، فقدم استقالته من البنك المصرى الخليجي بعد ثلاثة شهور في يونيو من عام ١٩٩١، حيث إن مشوار حياته لم يكن بالسهل.

فمنذ أن تخرج من الكلية الحربية في سبتمبر عام ١٩٤٢ إلى أن ترك وزارة الدفاع في مايو ١٩٨١، يكون قد قضى في خدمة القوات المسلحة ما يربو على ٣٦ عامًا. وإذا أضيفت إليها فترة الخدمة في المخابرات العامة تصبح أربعين عاما. وهي مُدة طويلة لخدمة عسكرية قضاها ضابط في القوات المسلحة.

في هذه الفترة المديدة اشترك في أربع حروب مع إسرائيل وفي حرب اليمن، ومع إضافة فترة حرب الاستنـزاف والفترة التي شهدناها من

الحرب العالمية الثانية والتي أسهم فيها بمجرد تخرُّجه من الكلية الحربية، يصبح مجموع هذه الحروب سبعًا، تدرَّج أثناءها في مناصب القوات المسلحة بداية من منصب قائد فصيلة صغيرة برتبة الملازم الثانى حتى منصب قائد فرقة مدرعة برتبه اللواء ثم مديرًا لسلاح المدرعات في حرب ٧٣.

وبعد انتهاء هذه الحرب وتركه لهذا المنصب الأخير، اعتقدَ أنه سيكون آخر مشاوير نضاله في القوات المسلحة، إلا أنه أسند اليه العديد من المهام والأعمال الصعبة.. فقد كلَّفه المرحوم الرئيس أنور السادات بثلاثة مناصب متتالية بعد ذاك هى: رئاسة المخابرات العامة ثم وزارة الدفاع ثم وزارة الخارجية، ولقد اعتقد أيضا في نهاية كل عمل منها أنه سيكون آخر المشاوير والمناصب، إلى أن أسند إليه الرئيس محمد حسني مبارك تولِّي رئاسة مجلس الوزراء في ٥ يونيو ١٩٨٤ حيث قدم استقالته لظروفه الصحية في سبتمبر ١٩٨٥.

وفاة والده:

في أوائل الثلاثينيات أصيب العالم بأزمة اقتصادية حادَّة امتدَّت آثارُها إلى مصر وكل بيت فيها، وبخاصة أصحاب الأراضي الزراعية وكان والده يعمل تاجرًا ومزارعًا في آن واحد، في أسيوط من قلب الصعيد، وهو من المواطنين الذين أمسك لهيب الأزمة الاقتصادية

بتلابيب أعمالهم وصحتهم، وأصيب بارتفاع حاد في نسبة السكر في الدم على أثر الأزمة ودهمه نزيف مخ توفي على أثرها فى ١٢ يونيو عام ١٩٣٣ وعمره لم يتجاوز اثني عشر ربيعًا، وتركهم هو وإخوته الخمسة (عزت مهندسًا، طلعت ضابطا في الفرسان، فكري أستاذ للتربية، أحمد مهندس، فؤاد طبيب)، وترتيبه هو الثالث بينهم. ويقول في مذكراته إنه كان يرغب في أن يكون طبيبًا وإن مجموعة كان في الثانوية العامة يؤهله للالتحاق بكلية الطب، ولكنه اعتقد أنه تأثر وقتذاك بسلوك شقيقه طلعت الذي يكبره بثلاث سنوات عندما ترك دراسة إعدادي الطب والتحق بالكلية الحربية وتخرّج منها بعد عامين فقط، ويقول إن التحاقه بهذه الكلية سوف يتيح له فرصة المشاركة في رعاية إخوته الثلاثة الأصاغر، مما يخفف العبء عن هذه السيدة المصرية الصامدة التي عصرتها السنين في مشوارها اللاهث حتى صاروا رجالاً. ومن هنا كان قرارُه بالالتحاق بالكلية الحربية خاصة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ التي سمحت بزيادة حجم القوات المسلحة المصرية.

كانت بريطانيا تهدف من وراء هذه الزيادة إلى خدمة أهدافها في منطقة الشرق الأوسط التي بدأت تتجه إليها أطماعُ دولتي المحور ألمانيا وإيطاليا، أما مصر التي كانت تُساير بريطانيا وهي مغلوبة على

أمرها، فربما كانت ترى على المدى البعيد أن هذه الزيادة قد تعمل على تكوين جيش وطني يكون نواة الأمل في تحرير الإرادة القومية وطرد قوات الاحتلال الغاصب، وعلى ذلك تقدم بأوراقه إلى الكلية الحربية وقبل بها.

الحالة الاجتماعية:

متزوج وله ولد وبنتان، الأول شريف تخرّج من كلية التجارة جامعة عين شمس، والثانية جيهان، والثالثة منى طبيبتان تخرجتا من كلية الطب جامعة عين شمس ويعيشون في القاهرة باستثناء منى التي تعيش مع زوجها في الولايات المتحدة الأمريكية.

كمال حسن على في عيون الآخرين:

علاوة على ما اتضح في السيرة الذاتية، أجمع العديد ممن عملوا مع الفريق أول كمال حسن علي، في مشاويره المختلفة، على تميزه بمواصفات وأحاسيس فياضة في معاملاته مع الآخرين حيث يتصف بـ:

- الهدوء في كافة المواقف والأزمات التي واجهت مشاويره المختلفة، فبرغم صعوبة المواقف التي واجهته كان يتسم دائمًا بالهدوء في معالجة هذه المواقف.

- الدراسة المتعمقة للأمور قبل اتخاذ القرار، حيث يقوم بدراسة المواقف التي يتعرض لها قبل اتخاذ أي قرار تجاهها.

- الاهتمام بالنواحي الإنسانية في معاملاته مع الآخرين، ففي مقابلته مع قائد المجموعة التي تولَّت تأمين انسحاب اللواء قيادته عام ١٩٦٧ بعد الانسحاب من سيناء، أظهر له سعادته عن نجاحه بالعودة والانسحاب من المهمة التي كلف بها.

- حُبّ الآخرين له، حيث نال حُبَّ جميع القادة الذين عمل معهم، كان محبوبا من جميع الزملاء والعاملين تحت قيادته ويحظى بمدح شديد منهم.

- صفات جميلة وعديدة يصعب أن تجتمع كلها في شخص واحد.

الفصل الثاني
الفترة العسكرية من حياته

أولا: الالتحاق بالكلية الحربية

يقول الفريق أوّل كمال حسن علي، في مذكراته: إن ظروفه التي نشأ فيها- حيث توفي والده وهو في سن الثانية عشرة والظروف والمتغيرات التي كانت مَرّت بها مصر والمنطقة والعالم في ذلك الوقت- هيأت لمصر الأجواء لإعادة بناء قواتها المسلحة وزيادة أعدادها، وربما كان ذلك مما ساعد على قبوله في الكلية الحربية ليتخرج ضابطا مثل شقيقه الأكبر طلعت.

كان أدولف هتلر قد حشد أعدادًا كبيرة من القوات المدرعة كانت سببًا في فزع كل أوربا التي لم تشهد مثيلاً لهذا الحشد منذ استخدام الدبابة البريطانية لأول مرة وبأعداد فردية قليلة في معركتى إيبر وكامبراى بفرنسا عام ١٩١٧، في الحرب العالمية الأولى، ولقد أدركت إنجلترا مَغْزَى هذا التهديد الواضح، فتغاضت عن احتلاله للنمسا عام ٣٨، ورضخت تمامًا بعد ذلك لمطالب هتلر في بعض أراضي تشيكوسلوفاكيا (١٩٣٩)، ولقد وضح تمامًا أنَّ ألمانيا

استعدّت سرًّا- وفي الخفاء- وكوّنت جيوشها الجرّارة التى ضمنت بها التفوق العسكريّ في مسارح العمليات في كلٍّ من أوربا والشرق الأوسط، وزاد هذا التهديد بعد تكوين محور التحالف الألماني الإيطالي الجديد... وبعد غزو إيطاليا للحبشة بالفعل في عام ١٩٣٦. ولذا كان من الضروري أن تعمل بريطانيا على تهدئة الموقف في مصر بعد اشتعال البلاد بهذه المظاهرات العارمة من أقصاها إلى أقصاها، فشرعت في إجراء مفاوضات جادة انتهت بمعاهدة ١٩٣٦. وبمقتضى هذه المعاهدة تم الاتفاق على زيادة عدد القوات المسلحة، فكان أن استوعبت الكلية الحربية دفعة جديدة في سبتمبر ١٩٤٠، وأصبح كمال حسن علي واحدًا من طلبتها الذين بلغوا ٢١٧ طالبًا، وهو أكبر عدد شهدته الكلية حتى ذلك الوقت. والحقيقة أن الكلية بدأت تعلن عن قبول دفعات جديدة بأعداد كبيرة وعلى فترات سريعة متلاحقة منذ عام ١٩٣٧ على أثر الأحداث السابقة.

وفى إطار هذه الأحداث قبلت بريطانيا المفاوضات مع مصر، وكان من الواضح من تشكيل وفد المفاوضات أن بريطانيا تركز على النواحي العسكرية وتعطيها الأهمية الأولى في المفاوضات، وإن تلاقت مع بعض المطالب المصرية من الناحية السياسية.

وبدأت المفاوضات في يوم ٢ مارس ١٩٣٦ بقصر الزعفران استمرت لبضعة أشهر حتى تم التوقيع عليها في لندن فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦، وتضمنت المعاهدة عدة موضوعات أهمها البند العسكري الذي ينصّ على أن تشرع مصر في الحال في تقوية جيشها عددًا وعُدة ليصل في أقرب وقت مستطاع إلى المستوى المنشود وهو ٣٠ ألف ضابط وجندى.

وكان الجيش في ذلك الوقت لا يتجاوز عددُه عشرة آلاف مقاتل، كما اشتملت المعاهدة على بند آخر سياسي يعتبر في ذروة الأهمية، وهو دخول مصر عضوًا في عصبة الأمم (التي حلت محلها الآن الأمم المتحدة) كدولة مستقلة ذات سيادة.

ويحكي في مذكراته كيف كانت الحياة العسكرية صعبة وشاقة عليه وكيف كان ذلك في إطار حبه لوطنه.

ثانيا: فترة الحرب العالمية الثانية:

في الوقت الذي كان فيه روميل ثعلب الصحراء الألماني يحاول جاهدًا اختراق دفاعات العلمين ليزحف بقواته قدمًا في اتجاه الاسكندرية والدلتا ثم باقي أراضي الشرق الأوسط، كانت الكلية الحربية تقيم حفلاً صغيرًا لتخريج دفعة كمال حسن علي في يوم ٢٥ أغسطس ١٩٤٢.

وفي نفس الوقت كان هناك قائد بريطانى جديد يُدْعَى مونتجمري يحاول مستميتًا إيقاف زحف روميل وصَدّه بكل قواه عند العلمين، هذا القائد عرفه التاريخ ويلقبه فيما بعد بالكونث مونتجمرى أف علمين لانتصاره الكاسح في هذه المعركة.

تخرّجت الدفعة ١٩١ ضابطا، وُزِّعوا على كافة أرجاء مصر، بل والسودان أيضا، حيث كان لنا فيه كتيبتا مشاة في ميناء بورسودان على البحر الأحمر، وجاء توزيعه في بادئ الأمر على الكتيبة الأولى مدافع ماكينة مشاة، وكانت متمركزة في معسكرات منشية البكري (بالقرب من منـزل عبد الناصر فيما بعد).

وقضى في مركز تدريب الكتيبة أربعة شهور، انتقلت بعدها الكتيبة برُمتها لتحتل أحد القطاعات بمنطقة قناة السويس، كان يمتد من الإسماعيلية «نمرة ٦» على مدخل بحيرة التمساح بالإسماعيلية إلى كوبري الفردان شمالاً. ولقد كلف بقيادة فصيلة تتمركز شرق وغرب بحيرة التمساح، لذلك أصبح في تنقل يومي دائم من شرق القناة إلى غربها وبالعكس لكي يمر طيلة اليوم على كل أفراد الفصيلة.

وكانت المهمة التي أسندت للكتيبة هي رصد الألغام البحرية التي تلقي بها الطائرات الألمانية في القناة لإعاقة الملاحة بها، بصفتها ممرًا



حيويًا لبريطانيا، وكان يدخل حماية القناة ضمن اتفاقية عام ١٩٣٦، وهكذا أصبحت القوات المسلحة المصرية تحارب في صفوف حليف لا تُكِنُّ له حُبًّا.

وكانت مصر في ذلك الوقت قد اتخذت قرارًا عام ١٩٤٢، بتجنيب مصر ويلات الحرب وسحبت القوات الخفيفة التي كانت على الحدود للحراسة بين السلوم وسيوة.

وفي ١٢ إبريل ١٩٤٣ تلقى خبر وفاة شقيقه الأكبر المهندس عزت إثر حادث في المنـزل نقل على أثره من سلاح المشاة إلى سلاح الفرسان الذى تغير اسمه فيما بعد إلى سلاح المدرَّعات ليكون مع شقيقه طلعت الذي كان برتبة النقيب فى ذلك الوقت.

لقد كان التجنيد إجباريا في ذلك الوقت لمدة ٥ سنوات، يقضيها من لم يتمكن من دفع البدل وهو مبلغ ٢١ جنيها، وكان هناك نظام لتجديد الخدمة لمن يرغب في البقاء في خدمة القوات المسلحة، ولكن بشرط القراءة والكتابة، كذلك كان هناك نظام الحاصلين على شهادة الابتدائية أو الكفاءة أو راسبي الثانوية، ويقول في مذكراته: ولقد صادفت وقتا طويلا من الفراغ لم أشأ أن أقضيه مع الجنود دون فائدة، فرأيتُ أن أتولى التدريس لمحو أمية البعض، وأن أشجِّع الباقين على استكمال دراستهم في سبيل استبقائهم في خدمة القوات المسلحة للاستفادة من الخبرة التي اكتسبوها.

ويقول أيضا في مذكراته: «ولقد أثمرت هذه التجربة بأكثر مما توقعت، وظلت راسخة في ذهني طويلا بعد أن لفت نظري رغبة الجنود الجامحة في التعليم، ولكن الشيء الذى لم يخطر على بالي في ذلك الوقت، أني بعد ٣٥ عامًا سوف تتاح لي فرصة تعميم هذا النظام في كل القوات المسلحة، بعد أن أصبحتُ وزيرًا للدفاع وقائدًا عاما للقوات المسلحة، فلقد كان اهتمامي في أول اجتماع عقدته في ٥ أكتوبر عام ١٩٧٨ مع قادة القوات المسلحة يتركز على محو الأمية كأحد الموضوعات الرئيسية، وأذكر أني وقتها حَثثتُ المجتمعين بالعبارة الآتية: (لاشك أنه من العار على القوات المسلحة أن يدخلها مواطن أمي يقضي فيها ثلاث سنوات ثم يخرج منها أميًّا مرة أخرى)».

في هذه الفترة أيضا ألحق للتدريب في القوات الجوية المصرية على أعمال الاتصال بين الجيش والطيران، ثم ألحق بعدها لمدة شهرين على الأسراب المقاتلة في مرسى مطروح، وكانت تقوم بالدوريات على حدودنا بعد انسحاب قوات المحور من منطقة العلمين ومرسى مطروح لحراسة طرق مواصلات الجيش البريطانى في دلتا النيل.

وفي بداية عام ١٩٤٥ ألحق مرة ثانية في دورة معلم للإشارة والاتصالات في معسكر للجيش البريطاني يطلقون عليه «دجلة» بصحراء المعادى جنوب القاهرة (مكانه الآن المعادى الجديدة). ولقد

أمكنه بفضل هذه الدورة تعريب وصناعة جهاز لإرسال الإشارات الكودية يستخدم كوسيلة سرية للاتصالات. ويروي ضباط مدرعات أنه كان يقوم بتدريس مادة الإشارة لهم في مدرسة المدرعات بعد ذلك.

وأثناء هذه الدورة سقطت القنابل الذرية الأمريكية على هيروشيما وناجازاكي وأعلنت اليابان الاستسلام بدون قيد ولا شرط، وكان وقع هذا الخبر على الضباط البريطانيين الذين يشتركون في الدورة وقعا مفرحًا عظيمًا، لقد أدركوا أن الحرب العالمية الثانية قد آذنت بالانتهاء، خاصة بعد احتلال الحلفاء لإيطاليا ومساحات كثيرة من غرب أوربا، وبعد ضرب برلين ومدن ألمانيا ضربا متواصلاً ساحقا بالقنابل.

ولقد حدث لبعض هؤلاء الضباط أن اضطروا للبقاء في مصر لمدة طويلة دون أن يحصلوا على أية إجازات بسبب المخاطر التى كانت تتعرض لها السفن والطائرات البريطانية عبر البحر المتوسط.

كان الموقف السياسي في مصر منذ عام ١٩٤٤ مثيرًا للارتباك، وما كادت الحرب العالمية الثانية تنتهي حتى بدأ التحرك الشعبى من جديد للمطالبة بالاستقلال التام، فاندلعت المظاهرات مرة أخرى في سبتمبر ١٩٤٦، خاصة بعد معارضة حزب الوفد للاتفاق الذي وصل إليه صدقي مع بيفين وزير خارجية بريطانيا، ولما تعثرت المفاوضات

في انجلترا عاد الوفدُ إلى مصر، حيث اشتعلت المظاهرات مرة أخرى، وبناءً عليه طلبت الحكومة المصرية من وزارة الحربية في ذلك الوقت التدخل لحفظ الأمن، على أن تترك لوزارة الداخلية مهمة مقاومة المظاهرات، ولذلك كلفت القوات المسلحة بمهمة حراسة المنشآت العامة في شتى أرجاء البلاد، وكان من نصيب سلاح الفرسان في تلك الفترة تأمين الأهداف الحيوية في مدينة المنصورة، ويذكر في مذكراته أن قوات الحراسة كانت تستخدم الدراجات العادية حيث كانت فترة رياضية ممتعة بالنسبة له ومن معه.

وبعد قليل من هدوء الأحداث والعودة إلى الثكنات صدرت إليهم الأوامر مرة أخرى لنُزول الجيش للشارع ولكن هذه المرة كانت بسبب تفشى وباء الكوليرا في البلاد، وكان أن كُلِّفت القواتُ المسلحة بعزل أجزاء القطر عن بعضها الآخر، حصرًا للوباء، وكان من نصيب مدرسة المدرّعات أن تقوم بعزل مداخل الصعيد عن القاهرة، وكان عمله في ذلك الوقت أركانحرب مدرسة المدرعات ضمن هذه المهمة القومية.

ثالثا: فترة حرب ١٩٤٨:

صدر القرار في مصر بدخول الحرب في ١٥ مايو ١٩٤٨ (مع باقي الدول العربية) لإنقاذ فلسطين، وكان النقراشي (حزب أقلية

سعدى) يرأس الوزارة ويعلم تماما حقيقة الموقف في فلسطين، فرأى أنه من الأنسب عدم الزّج بمصر في الحرب، إذ كان يدري تمامًا أن الجيش المصري لم يكن مستعدًا لا بالقوة ولا بالعدد لهذه الحرب، كما أنه كان في شك من نوايا الإنجليز الذين كانت تُرابط قواتهم في منطقة القناة، الأمر الذي- لا شك- له تأثير مُخيف على أمن وخطوط مواصلات الجيش، فباستطاعتهم في أى لحظة قطع هذه المواصلات وإيقاف إرسال العتاد والمؤن إلى القوات التي تحارب في فلسطين.

وحيرة النقراشى لم تدُم طويلاً، فقد فاجأ الملك فاروق في ١١ مايو بدعوة الملوك والرؤساء العرب لاجتماع مغلق في مزرعته بأنشاص، ولدهشته لم يدعُه الملك إلى هذا الاجتماع، بل لم يدعُ اليه أي مسئول بالحكومة المصرية ولا غيرها، وكل ما حدث بعد الاجتماع هو أن الفريق حيدر باشا وزير الحربية قد تلقى أمرًا مباشرًا من الملك بدخول الجيش المصري الحرب.

وهكذا تجمّعت القوات المسافرة في محطة السكة الحديد في اليوم التالي مباشرة ١٣ مايو لكي تسافر مع مُعدّاتها إلى الميدان.

لم تكن القواتُ المسلحة يتوفر لها المعدات المناسبة ولا خبرة في الحرب، فالجيش المصري فى ذلك الوقت لم يكن قد دخل حربا منذ حروب محمد علي وفتوح السودان في أواخر القرن التاسع عشر. وقد تعمدت البعثة البريطانية التي كانت تهيمن على تدريب الجيش

تنقل أي خبرة له هذا فى الوقت الذي كان قادة القوات الإسرائيلية يحظون فيه بالوقوف على أحدث الأساليب العلمية العسكرية وخبرات الحرب العالمية الثانية وأحدث الأسلحة، كما أن القتال كان يتم دون أي استطلاع لأرض المعركة ولا أي معلومات متوفرة.

وفي ١٤ مايو ١٩٤٨ (أي اليوم السابق لدخول القوات العربية الحرب) كان مهندسو الاستعمار البريطانيين متأكدين تمامًا أن الصراع الذي أوجدوه في المنطقة بين أهل المنطقة وبين الجسم الغريب الذي زرعوه بداخلها سوف يتيح لهم الفرص لاستنْزاف واستغلال باقي مُقدَّرات المنطقة من خامات وأسواق وقناة وبترول وموقع... إلخ.

وقد شارك كمال حسن علي، في هذه الحرب، عندما انضم إلى وحدة مدرعات شكلت جديدًا ببعض دبابات من مخلفات الحرب العالمية الثانية ضمت ١٨ دبابة، تحركت في ٨ نوفمبر ١٩٤٨ بالقطار إلى رفح، وبعد عدة معارك مع القوات الإسرائيلية شرق قطاع غزة، ما بين تبة الشيخ نوران والتبة ٨٦، وأصيب كمال حسن علي في هذه المعارك. وبعد إعلان الهدنة الثالثة في ٧ يناير ١٩٤٩، وبسبب تهشم عظام اليد، فقد رحل إلى مستشفى الجمعية الخيرية بالعجوزة، والتي

كانت ضمن خطة تعبئة القوات المسلحة، وهي الإصابة الأولى له في الحرب.

حرب ٤٨ هذه هي التي ظهرت بعدها قضية الأسلحة الفاسدة، هذه القضية التى سرعان ما تأججت واتسعت لتكشف أن الفساد لم يكن مقصورًا على السلاح أو الذخيرة وحدهما بقدر ما كان مُستشريًا في نظام الحكم كله.

بعثة في بريطانيا:

في صباح اليوم الأول من سبتمبر عام ١٩٤٩، استقل الباخرة أطنا التركية من ميناء الإسكندرية إلى إيطاليا، حيث كانت إدارة سلاح الفرسان قد أعلنت منذ بضعة أشهر عن امتحان مسابقة لبعثة دراسية لمعلمي الإشارة واللاسلكي للقوات الميكانيكية بالولايات المتحدة الأمريكية أو بإنجلترا. ولقد اجتاز الامتحان وتقرر أن تجرى الدراسة في مدرسة المدرعات في إنجلترا في بوفنجتن بمقاطعة دورست في جنوب الجزيرة البريطانية، واستقل بعد ذلك القطار من مرسيليا حتى أقصى شمال فرنسا ليعبر بحر المانش إلى الجزيرة البريطانية، وعندما وصل إلى انجلتزا كان قد مضى على انتهاء الحرب العالمية الثانية ما يقرب من ثلاث سنوات ونصف، شعر خلالها بمعاناة الشعب من أحداث الحرب .

رابعا: فترة ثورة يوليو ١٩٥٢:

عاد كمال حسن على إلى مصر من هذه البعثة فى أواخر يناير من عام ١٩٥٠، كانت ثمة أشياء خطيرة على وشك الحدوث، فعندما تركها كانت مصر وكأنها تعيش فوق بركان ثائر، وكان حزب الوفد قد شكل وزارته في ذلك العام والتزم بإلغاء معاهدة ١٩٣٦، بعد عدم توفيقه في الحصول على ما سبق أن حصل عليه صدقي باشا في مفاوضاته مع بيفين، ولذا أعلن الوفد عن إلغائه للمعاهدة من جانب واحد في يوم ٨ أكتوبر عام ١٩٥١.

وفي الحال تحرّكت المشاعر الوطنية في نفوس الشعب من جديد، وقاطع العمال المصريون العمل في القواعد البريطانية بمنطقة القناة التي امتلأت بالعديد من الجماعات الفدائية (التي تنتمي لمختلف الأحزاب)، وبدأت تشن غاراتها اليومية على المستودعات والمعسكرات.

غير أن هذا العمل كان يتطلب تنظيمًا وتنسيقا معينا من حكومة الوفد، الأمر الذي أدّى إلى قيام القوات البريطانية بإجراءات فعالة لمواجهته كالتفتيش الدقيق لقطارات السكك الحديدية والسيارات المتجهة بَرًّا إلى مدن القناة، ثم السيطرة الكاملة على المعابر والكبارى المؤدية إلى سيناء.

مجزرة الإسماعيلية:

وعندما اشتدّت أعمالُ التخريب والأنشطة الفدائية، فقَدَ القائدُ البريطاني في القناة أعصابه، فأمر بتدمير بعض القرى حول الإسماعيلية، لاعتقاده أنها تعمل كقواعد لاختباء الفدائيين. ثم حاصَرَ قسم شرطة الإسماعيلية لنفس الدعوى، بعد أن أرسل إنذارًا لمأمور الشرطة بتسليم أسلحته والانسحاب إلى القاهرة، غير أن ضباط وجنود الشرطة رفضوا هذا الإنذار، فأطلق البريطانيون عليهم نيران دباباتهم ومدفعيتهم. ولم تكن قوة الشرطة مسلحة بشيء سوى البنادق العادية القديمة. ومع ذلك قاومت العدوان ببسالة وشجاعة فائقة، ولم تتوقف هذه المجزرة إلا بعد بضع ساعات سقط خلالها خمسون شهيدًا وسبعون جريحا، هُمْ كل القوة تقريبا التي كانت تتمركز في قسم الشرطة ومبنى محافظة الإسماعيلية، هذا بخلاف عدد آخر من المدنيين الذين قتلوا أو جرحوا أثناء عمليات تفتيش القوات البريطانية للقرى المسالمة.

وفي اليوم التالى (٢٦ يناير ١٩٥٢) انفجر الشعب كالبركان، وخرجت قوات الشرطة في مظاهرة احتجاج بشوارع القاهرة متجهة إلى سراى عابدين ومجلس النواب، وانضمّت اليهم جموع من الشعب والطلبة احتجاجًا وغضبا على الإنجليز والحكومة معًا. وبينما هُمْ في وسط ميدان الأوبرا، انْدَسّ نفر مجهولون يشعلون النيران بطريقة منظمة

في عدد من دور السينما والمحلات التجارية الكبرى، وسرعان ما التفَّت القاهرة داخل سحابة سوداء من الدخان، ولقد عجز التاريخ تمامًا عن تحقيق مصدر هذه الشرذمة التي كانت تقوم بالحرائق وفق تخطيط معين، ولا نستطيع أن نجزم حتى يومنا هذا إذا ما كانت أصبع السفارة البريطانية وراء هذا الحادث.

وفي هذا اليوم كان كمال حسن علي، قد كُلِّف باختبار أنواع معينة من العربات الحديثة لمعرفة قدرتها وكفاءتها للسير في الصحراء والرمال، وعند استماعه للإذاعة المصرية، أثناء المأمورية، علم بأخبار الحرائق قبل عودته بيومين، وعند وصوله إلى مدرسة المدرعات برتل السيارات تلقى تعليمات فورية بالتوجه إلى حديقة الأزبكية حيث تمركزت قوة من سلاح الفرسان للحفاظ على الأمن.

وكان من المعتقد أنه يمكن تلافي هذا الدمار الشديد من البداية لو بادَرَ حيدر باشا بإنزال القوات المسلحة إلى الشارع من اللحظات الأولى، لكن كان من الواضح أن وزير الدفاع لم يكن واثقا من ولاء القوات المسلحة في تلك الأيام، وخشي أن تنضم القوات إلى المتظاهرين فتكون الطامة الكبرى التي قد تعجِّل بنهاية الجميع.

مع شهر يناير ١٩٥٢ تجمعت سُحب أزمة جديدة بين الجيش والملك حملت معها نهاية حكم أسرة محمد علي، التي ظلت تحكم البلاد لمدة قرن ونصف القرن، منذ تولى محمد علي الحكم في عام ١٨٠٥

برغبة الشعب وإرادته، حيث شهد هذا الشهر موعد انتخابات رئيس وأعضاء مجلس إدارة نوادي ضباط القوات المسلحة، ومع نجاح اللواء محمد نجيب- رغم محاولة السراي فرض حسين سري عامر ممثل سلاح الحدود وعندما اجتمع مجلس الادارة الجديد بتشكيله المنتخب ديمقراطيا- لم يُرْضِ ذلك الملك فاروق فحَلَّ المجلس في ١٦ يوليو ١٩٥٢.

ثورة يوليو:

ولم يكن كمال خسن علي، وشقيقه طلعت، على دراية كاملة بوجود تنظيم الثورة ولا بأسماء الضباط القلائل المشرفين عليه والذين لقبوا بعد ذلك بالضباط الأحرار.

وعقب أحداث الثورة حدث تقسيم للضباط ما بين أهل الثقة وأهل الخبرة، وكانوا من أغلبية ضباط القوات المسلحة الذين لم يشاركوا أو دعُوا إلى الثورة، ونتيجة لذلك نقل للعمل كأركان حرب السلاح للتدريب في سبتمبر ١٩٥٢، وأتاح له ذلك الموقع التعرف على الفارق المتميز بين الطبقة الجديدة التى أطلقت على نفسها «أهل الثقة» وبين طبقة الكادحين الذين عرفوا «بأهل الخبرة»، وهم الذين لم ينخرطوا في أي عمل سياسى، بل استمروا في المثابرة على القيام بأعمالهم العادية من تدريب وكدح لرفع كفاءة وحداتهم.

أزمة مارس ١٩٥٤

ولقد أدّى تصاعُد الصراع بين محمد نجيب ومجلس الثورة إلى انتشار إشاعة عن استقالة محمد نجيب الذي كان يتمتع بشعبية كبيرة بين ضباط الجيش باعتباره أحد أبطال ٤٨.

وفي يوم ٢٦ فبراير ١٩٥٤، أصدر مجلس الثورة بيانا مقتضبا بقبول استقالة محمد نجيب وعودة مجلس الثورة إلى صفوف القوات المسلحة وتسليم السلطة للأحزاب، وانقسمت القواتُ المسلحة ما بين مؤيد ومعارض للقرار حتى عاد محمد نجيب مرة أخرى ووشى به أحد الضباط في ظل هذه الأوضاع، حيث نقل على إثرها فترة لا تتجاوز ثلاثة شهور إلى مصلحة السجون، ثم من مصلحة السجون إلى معهد الضباط العظام، ثم منه إلى إدارة الحرب البرية/ الجوية، وظل يعاني من حالة القلق وعدم الاستقرار، إلى أن تقدم لامتحان كلية القادة والأركان ونجح في الامتحان وعلى إثرها سلم نفسه إلى ادارة السلاح ومنها إلى كلية القادة والأركان.

اتفاقية جلاء البريطانيين:

كان من أهم أهداف الثورة تحرير الوطن من الاستعمار.. ولذلك دخل مجلس الثورة فى مفاوضات طويلة مع الجانب البريطاني، إلى أن تم توقيع اتفاقية الجلاء في ١٩ أكتوبر ١٩٥٤، ولكن بعد نضال

ومقاومة سرية طويلة، ولقد أدَّت هذه الاتفاقية إلى رفع شأن جمال عبد الناصر أمام جماهير الشعب بعد أن هدأ الصراع بينه وبين محمد نجيب.

وهناك من يقول مُعلِّقا: لو أن عبد الناصر لم يحفل تاريخ حياته كلها بعمل آخر غير هذا العمل - أى إجلاء الإنجليز عن البلاد بعد أن حكموها لثمانية وسبعين عامًا أذاقوا فيها شعبها المر والهوان- لكان هذا العمل وحده كافيا لأن يجعل منه بطلا يسجله التاريخ على رأس قائمة أبطال مصر..

خامسا: العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦:

لقد بذل جمال عبد الناصر كل جهده للاحتفاظ بعلاقة صداقة مع الولايات المتحدة، كما حاول لمدة عامين ونصف بعد الثورة أن يحصل منها على بعض الأسلحة، وكانت قد وافقت على إرسال شحنة من الأسلحة في حدود ٢٧ مليون دولار، تم شحنها بالفعل، وكانت إنجلترا قد ضايقها رفض مصر ومقاومتها لحلف بغداد، كما كانت فرنسا يؤرقها مساعدة مصر للثوار في الجزائر، خاصة بعد أن أعلنت ساعة الصفر لثورة الجزائر في أول نوفمبر ١٩٥٤ من إذاعة صوت العرب في القاهرة.

وفي ذلك الوقت عملت إسرائيل على إرسال مجموعة تخريبية إلى مصر تحت قيادة ضابط مخابرات إسرائيلى مُتخَفٍّ تحت شخصية رجل أعمال بلجيكى «ماكس بنت» الذى نجح في تجنيد مجموعة من اليونانيين والأجانب للقيام بهذه الأعمال التي هدفت إلى إظهار أن مصر ليست ذات استقرار داخلي وأن الثورة عاجزة عن فرض حمايتها على المصالح والمنشآت الأمريكية، لذلك بدأت تحدث بعض الحرائق غير المعروف مصدرها داخل دور السينما وفي مكتب الاستعلامات الأمريكية وغيرها. وقبل ذلك حدثت ظاهرة مساس بالأمن مقلقة للغاية، إذ بدأت الصحف تتحدث عن مجنون يقتل كل بضعة أيام إحدى السيدات في دور السينما المكشوفة بواسطة بندقية بعيدة المدى يصوبها من أحد المباني القريبة المشرفة على دار العرض.

ولكن قبل أن يختلَّ الأمن وتنجح الخطة الإسرائيلية (التي يُقال إنها كانت من تخطيط بن جوريون شخصيا، رغم أنه كان بعيدا عن الوزارة في ذلك الوقت، مما ألصق التهمة خطأً ببنحاس لافون وزر الدفاع، وسميت الواقعة بفضيحة لافون). تم اكتشاف الشبكة المخرِّبة بواسطة المباحث المصرية، وتم القبض عليها هي وزعيمها ضابط المخابرات الإسرائيلي، الذي حاول في بادئ الأمر أن يتنصل من كل شيء ويحتمى بجواز سفره البلجيكى المزوَّر، لولا أن ضابط

المباحث المصري الذي دهمه في شقته عاريا تماما عند خروجه من الحمام. ثم رحل إلى السجن ولكنه غافل الحراس وانتحر هناك.

إغارات إسرائيلية:

وفي ٢٥ فبراير ١٩٥٥، تم توقيع الحلف بين تركيا والعراق، وفي ٢٨ فبراير ١٩٥٥، أغارت قواتُ الجيش الاسرائيلي على أحد المعسكرات المصرية بالقرب من مدينة غزة. وكان ذلك بعد أن تولّى بن جوريون حكومة إسرائيل بثلاثة أيام فقط.

وتم الاتصال مرّةً أخرى بالولايات المتحدة الأمريكية للحصول على سلاح للدفاع دون جدوى، مما زاد من تركيز الأعمال الفدائية والتخريبية داخل أراضي إسرائيل. وفي ٣١ أغسطس ١٩٥٥، قام الجيش الإسرائيلي بمهاجمة مركز البوليس في خان يونس بقطاع غزة، ثم قامت إسرائيل في ٢٠ سبتمبر ١٩٥٥، باحتلال المنطقة المحايدة بين مصر وإسرائيل، وهي منطقة العوجة، مما دعا مصر إلى توقيع أول صفقة سلاح بمبلغ ستين مليون دولار مع تشيكوسلوفاكيا على أسس تجارية لتصل في أكتوبر من العام نفسه.

وبالرغم من اتجاه مصر إلى اتخاذ سياسة متوازنة بين الشرق والغرب، إلا أن ذلك لم يقنع الغرب على الإطلاق.

وهنا بدأت الحرب البادرة. وبدأت مصر تستعد لتأمين الثورة داخليا من القوى المضادة، كالوفد والإخوان المسلمين وقدامى الإقطاعيين الذين نزعت ملكية معظم أراضيهم.

وتلا ذلك غارة أخرى من اسرائيل على سوريا في ١١ ديسمبر ١٩٥٥، لإقناعها بأن أمنها لا يضمنه اتفاق الدفاع المشترك الذي وقعته مع مصر في أكتوبر من العام نفسه.

دفع الدول العربية إلى أحضان السوفييت:

كان موقف الغرب كما لو كان يدفع مصر وسوريا دفعًا إلى الشرق، بل وتمادت الولايات المتحدة في استفزازها، فسحبت تمويل السد العالى الذي كانت مصر قد قرّرت إقامته كمشروع اقتصادي هام، كما انسحبت انجلترا أيضا معها، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن أعلن تأميم قناة السويس لبناء السد العالي.

كان وُصول الأسلحة الروسية إلى مصر إيذانا بسباق تسلح رهيب بين العرب وإسرائيل، فبمجرّد وصول هذه الأسلحة، أعيد تنظيم القوات المسلحة وتسلحت مجموعتان مدرعتان بالدبابات ت ٣٤، كما تسلمت القوات الجوية طائرات ميج ١٧ واليوشن ٢١.

وفي المدرعات لم يكونوا سعداء تماما بالدبابات ت ٣٤، إذ كانت دبابات مستعملة منذ الحرب العالمية الثانية، كثيرة الأعطال، وتطلبت جهودا كبيرة في الإصلاح والحفاظ على الصلاحية الفنية لها.

أما فى كلية أركان الحرب التي كان يدرس بها فى ذلك الوقت، فكان نتيجة ضغوط الغرب على مصر، أن قررت القيادة العامة للقوات المسلحة ضغط برنامج الدراسة بالكلية من سنتين إلى سنة واحدة.

ورغم أنها كانت سنة شاقة، إلا أنها كانت مثمرة للغاية، وانتهت الدراسة في نهاية أغسطس ١٩٥٦، وعاد إلى إدارة سلاح الفرسان الذي كان قد تغير اسمه إلى سلاح المدرعات.

ولم يمض أكثر من شهر واحد حتى كان الضغط الغربي نتيجة تأميم قناة السويس قد وصل إلى منتهاه، فقد بدأت كل من إنجلترا وفرنسا في التحرك عسكريا، كما انسحب المرشدون البحريون الأجانب من شركة قناة السويس بعد تأميمها من أجل شل حركة الملاحة فى القناة لإيجاد ذريعة للتدخل للحفاظ على هذا الشريان الحيوي.

وفي إطار استعدادات مصر لعدوان جديد، شكلت القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية قيادة للاحتياطي الاستراتيجي في منطقة غرب القاهرة، بقيادة مدير سلاح المدرعات اللواء عبد العزيز مصطفى، وتولى العقيد عبد المحسن أبو النور أركان حرب العمليات رقم ١، وتولى كمال حسن علي أركان حرب العمليات رقم ٢.

بداية العدوان:

في مساء الاثنين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦، أسقطت إسرائيل قوة من المظلات في سدر الحيطان في المدخل الشرقى لمر متلا، وهي عملية في عُمق سيناء، على بعد ١٠٠ كم من الحدود مع إسرائيل، إذن يعني ذلك عدوانا جديدا على مصر.

لقد مَرّ- منذ أن أعلن عبد الناصر صيحته بتأميم القناة يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦ في ميدان التحرير بالإسكندرية- ما يزيد على ثلاث شهور، دارت فيها القناة بالمرشدين المصريين والمتطوّعين الأجانب، على أفضل ما تكون الإدارة، وكاد العالم أن ينسى كل الصخب والضجيج الذى افتعلته بريطانيا وفرنسا في الأيام الأولى من الأزمة، لذلك اعتقدت القيادة المصرية أن ما يجري فى سيناء يقتصر على إسرائيل وحدها.

وعندما قبلت إنجلترا أن يجتمع وزير خارجيتها سلوين لويد مع بن جوريون وكريستيان بينو وزير خارجية فرنسا، قال لهم في صراحة واضحة إننا نرفض أن تقوم إسرائيل بدور المعتدي بينما تقوم إنجلترا وفرنسا بدور ملائكة السلام، ذلك لأن إنجلترا- في مرحلة مبكرة من المؤامرة- حرصت أن يقتصر دورها على احتلال القناة وحمايتها «للدفاع عن مصر»، وفقا لبنود معاهدة الجلاء التي أبرمت في عام ١٩٥٥ والتي شاء القدر ألا تخرج أبدًا إلى النور، ومن بين الخلافات

التى حدثت احتجاج إسرائيل على بدء العدوان وحدها في الأيام الأولى، مما قد يُعرِّض مدنها للضرب بالقنابل من القاذفات المصرية، وهو الأمر الذي عالجته فرنسا بقبولها إرسال عدد من طائراتها الميستير لتتمركز في مطارات إسرائيل للتصدي لأي طائرات معادية مُغيرة، ولما أَصَرَّ الشركاء على ضرورة أن تقوم إسرائيلُ بدور الذريعة، عالج ديانُ الموقف بقبوله أن يجعل العدوان الإسرائيلي يقتصر في الساعات الأولى على مجرد القيام بمناوشات محدودة بالقرب من قناة السويس وعلى الحدود وتأخير الزَّج بالقوات الرئيسية حتى يصدر الإنذار البريطاني الفرنسي ويبدأ الضرب الفعلي للمطارات المصرية بالقنابل.

وهكذا بدأ العدوان بإنزال قوات محدودة (كتيبة) في سدر الحيطان شرق ممر متلا، كما أصدر ديان تعليماته بعدم استخدام المدرعات والدخول في معارك رئيسية قبل يوم ٣١ أكتوبر، عندما يتأكد موقف بريطانيا وفرنسا وتظهر ردود الفعل لتدخلهما في المعركة.

وبالطبع سوف تقبل إسرائيل الإنـذار، وسوف ترفضُه مصر، ليعيد التاريخ مأساة نفارين من جديد، حيث قامت بريطانيا وفرنسا (ومعهما روسيا) بتحطيم الأسطول المصري عام ١٨٢٧ . ولكن في هذه المرة سيهجم على مصر ثلاث دول تحشد معًا أكثر من ١٠٠٠ طائرة و٧٠٠ دبابة وأسطولين كبيرين وقوات برية تتفوق في العدد على القوات المصرية أربع مرات على الأقل.

ويعتقد أن خطة غزو مصر قد عرضت في السر على عمالقة الفكر العسكري الذين كانوا أحياء في ذلك الوقت (أمثال الفيلد مارشال مونتجمرى واللورد مونتباتن وغيرهما)، والجميع توقعوا لمصر الاستسلام الفوري منذ الساعات الأولى، ولاندهاش الجميع، لم يحدث أن استسلمت مصر، بل صمدت حتى آخر دقيقة من العدوان.

وقد أبلت القواتُ المسلحة المصرية في سيناء أعمالاً بطولية منها في أبو عجيلة، أم قطف، وفي ممر متلا.

وبانتهاء حرب السويس تم انسحاب القوات الإنجليزية والفرنسية من منطقة بورسعيد يوم ٢٣ ديسمبر، كما انسحبت القوات الإسرائيلية بعد ذلك بمدة قصيرة من سيناء إلى خطوط ما قبل العدوان الثلاثي، وكان دور كمال حسن علي، في هذه الحرب أن كُلِّف في آخرها بعضوية إحدى اللجان لوضع تقرير عن الخسائر الناجمة عن الاحتلال والانسحاب الاسرائيلى من سيناء ولقد بدأت اللجنة أعمالها بعد الانسحاب الإسرائيلى مباشرة، ولم تكن مهمتها يسيرة.

سادسا: فترة الوحدة بين مصر وسوريا:

عقب انتهاء العدوان الثلاثي، كان على مصر بعد هذه التجربة المريرة، أن تطور قواتها المسلحة، سواء في التنظيم أو في التسليح،

بعقد عدة صفقات مباشرة للأسلحة الروسية احتوت على الدبابات ت ٥٤، ٥٥ والعربات المدرعة والمدفعية والطائرات الميج ١٧، ١٩ والسوخوى وغيرها. وقدمت بعثات تدريبية للتدريب في مصر على مختلف المستويات، كما أوفدت البعثات أيضًا لحضور دورات تدريبية في الاتحاد السوفييتى، وكان كمال حسن علي من نصيبه أن سافر في سبتمبر عام ١٩٥٨ لحضور دورة قادة ألوية استغرقت أربعة عشر شهرًا، تلقَّى فيها أحدث تدريبات وخبرة قتال الحرب العالمية الثانية، وعاد إلى مصر في ديسمبر ١٩٥٩، وعُيِّن في فرع العمليات بالقيادة الشرقية بالإسماعيلية، وكانت فرصة له، حيث كانت القيادة المسئولة عن الحدود الشرقية في سيناء ومنطقة قناة السويس، وأتيحت له فرصة للسفر إلى سوريا ضمن وفد عسكري للتعرف على القيادات السورية وجبهة الجولان من أول جبل الشيخ ومنبع نهر بانياس شمالاً، حتى الحمة وينابيعها الطبيعية الدائفة جنوبا. وعقب الوحدة بين مصر وسوريا في عام ١٩٥٨ عُين كمال حسن على فى أغسطس عام ١٩٦٠ للعمل في أحد الألوية المدرعة في سوريا.

والحقيقة أن طريق الوحدة لم يكن مفروشًا بالورود والرياحين كما تصوَّر- في بادئ الأمر- المتفائلون من البلدين، لقد كان طريقا محفوفا بالمخاطر تعرض لكل أنواع التحدِّي الخارجي والداخلي، على حد سواء، فأعداء الوحدة المتربصون لها، كانوا يحيطون بها

على المستويين العالمي والمحلي، وبرغم أن التاريخ يحفل بكثير من قصص الدول التى توحَّدت، ولكن من النادر أن ترى وحدة- كوحدة الشعبين السوري والمصرى- قد تربص بها هذا العدد الزاخر من الأعداء. بل من الأصدقاء الذين انقلبوا بسببها إلى أعداء.

فعلى المستوى العالمي، نجد أن الولايات المتحدة لم تُسعدها هذه الوحدة بالمرة، إذ رأت فيها تجاوزًا لدور عبد الناصر يفوق الحدَّ المسموح به، أما بريطانيا- والتي كان دورها في الشرق الأوسط آخذًا في التقلص- فلا شك كان الدور المتزايد لمصر يزعجها. ثم هناك تركيا التي كانت تحتل سوريا أيام العثمانيين، ولقد عَبَّرَت عن قلقها من الوحدة عندما قال رئيسُها عدنان مندريس «بتنا وكان على حدودنا الجنوبية جار يبلغ حجمه خمسة ملايين، وأصبحنا وإذا بهذا الجار خمسة وعشرين مليونا».

أما روسيا فهي أيضا لم تكن من بين السعداء بحدوث هذه الوحدة، فبدلاً من أن تكون الوحدة عونا وسندا للمدِّ الشيوعي في البحر المتوسط، فوجئت روسيا بأن رجل الاشتراكية الأول في المنطقة يقوم باعتقالات واسعة للشيوعيين، ليس في مصر وحدها وإنما امتدت اعتقالاته إلى سوريا بمجرد وقوع الوحدة.

وإذا كانت الدول الغربية لم تسعدها هذه الوحدة، فإن بعض الدول العربية الشقيقة كانت في موقف أشد مقتا وكرها، ولا شك

أن السعودية والأردن كانتا على رأس الدول العربية الكارهة لهذه الوحدة.

تولى كمال حسن علي، العمل رئيس أركان اللواء ٧٠ السوري في البداية، ثم قائدا للواء، خلفا للقائد السوري الذي سافر في بعثة إلى الاتحاد السوفييتي.

وفي الفترة التي عاشها في اللواء قبل الانفصال لم تكن الأمور قد وصلت من التردِّي الذي بلغته في أوائل العام ١٩٦١، وكان في اللواء في ذلك الوقت ٣٥ ضابطا مصريا، وكانت هناك أمورٌ أخرى- في ذلك الوقت- تجري على المستوى السياسي تحمل في طياتها مخاطر الانفصال وفك عُرَى الوحدة.

وقدِّر عددُ الضباط المصريين في الجيش السوري في ذلك الوقت بحوالي ٨٥٠ ضابطًا، جاءوا ليسدوا عجزا قائما، وليحلوا محل عدد كبير من الضباط السوريين الذين خرجوا من الجيش عقب وقوع عدة انقلابات متكررة.

وفى ليلة ٢٧/ ٢٨ سبتمبر عام ١٩٦١، حدث انقلاب في سوريا، واقتادوه إلى أحد المعسكرات القريبة من دمشق، وعلى إثرها أصيبت زوجته بصدمة نفسية أدَّت إلى ظهور أعراض مرض السكر عليها، والذي لازَمَها بعد ذلك طوال حياتها، برغم المشاعر الطيبة لجيرانها السوريين الذين لم يتركوها هي وأولاده لحظة واحدة، وبعد ٤٨ ساعة

من الانفصال، وصل إلى مصر هو وعائلته. وهكذا انتهت أول وحدة عربية في العصر الحديث.

بعد عودته المبكرة إلى مصر، صدر أمرُ إلحاقه إلى إدارة المدرعات بصفة مؤقتة، ومنها انتدب للعمل مدرسًا في كلية القادة والأركان الفترة منذ عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٣، واعتبرها فرصة للقراءة والترجمة لكثير من الكتب العسكرية عن الحرب العالمية الثانية وغيرها، والاستمتاع مع فكر أفضل القادة والمحللين العسكريين، والقراءة- باستفاضة- عن الحرب الخاطفة وحرب المدرّعات ومشاكل أوربا، وعن فترة الحربين العالميتين الأولى والثانية.

سابعًا: فترة حرب اليمن:

لم تدُمْ فترة الاستمتاع بالعلم والتدريس طويلاً بكلية أركان الحرب، إذ سرعان ما صدر أمر انتدابه بعد قرابة عام واحد، إلى هيئة العمليات الحربية للقوات المسلحة، ليكون مسئولاً في فرع العمليات عن مسرح العمليات باليمن، ثم بعد شهر واحد فقط صدر أمر آخر بانتدابه إلى فرع العمليات للعملية ٩٠٠٠ نفسها، وكان هذا هو الاسم الرمزي أو الكودي لحرب القوات المصرية في اليمن. فتوجه إلى صنعاء لتولِّي رئاسة فرع العمليات في سبتمبر ١٩٦٣.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي رأى فيها «اليمن السعيد»، فلقد حدث منذ شهور قليلة فقط أن ذهب في زيارة ميدانية قصيرة لليمن مع أعضاء هيئة تدريس الكلية، مصطحبين طلبة الدورة التاسعة عشرة التي كان يقوم بتدريس مادة تكتيك المدرعات لهم، وكان من تقاليد الكلية أن تقوم كل دورة من الدورات بزيارة لدولة أجنبية، وفي الدورات السابقة هناك من حظي بزيارة الولايات المتحدة، كالدورة العاشرة التي كلفت باستلام صفقة السلاح الأمريكية التي لم تتم. وحظيت الدورة السابقة بزيارة مجموعة من الدول العربية.

ولم تستغرق زيارته لليمن مع الكلية سوى أسبوع واحد، حيث وصل صنعاء في ١٥ مايو في أعقاب نجاح ما كان يُعْرَف بحملة الربيع التي اشترك عبد الحكيم عامر بنفسه في شَنِّها، ونجحت بعدها القوات المسلحة في السيطرة على ثلثي أرض اليمن ضد قوات الملكيين التي كانت تتلقى المساعدة من قوى خارجية متعددة.

ولقد كان الإمام أحمد، آخر الأئمة الذين حكموا اليمن، ذا شخصية أسطورية، أحكم عزل بلاده تماما عن حضارات العالم الخارجي، وعندما توفي في يوم ١٩ سبتمبر ١٩٦٢ خلفه ابنه الإمام البدر ولي عهده الذي لم يمكث في الحكم سوى أسبوع واحد، ثم

كانت الثورة التي حدثت في ليلة ٢٥/ ٢٦ سبتمبر، وظن الجميع أنه قتل وأذيع ذلك في بيان رسمى، في صباح اليوم التالي أعلن سقوط الملكية وقيام الجمهورية العربية اليمنية اعتبارًا من ٢٦ سبتمبر، ولكن سرعان ما ظهر ولي العهد الهارب في بلده في شمال غرب اليمن.

كانت الأخطار تحيط بالثورة من جهات عديدة، وطلب قائد الثورة من مصر مساعدة عسكرية، ووصل أنور السادات الذي كان قد عين مسئولا سياسيا عن اليمن في الأسبوع الثاني من أكتوبر، حيث وَقَّع اتفاقية دفاع مشترك بين مصر واليمن، وبدأت وصول القوات المصرية جوا وبحرا.

وقد كان هناك تخوف كبير- أمريكي وغربي- من تهديد المملكة العربية السعودية، رغم تأكيدات مصر أن الهدف هو حماية الثورة من إنجلترا التي تحتل اليمن الجنوبي.

في أول سبتمبر ١٩٦٣ نقل كرئيس العمليات في قيادة القوات في اليمن الذي كان الفريق أنور القاضي قائدا للقوات، وفي مقابلته مع الفريق القاضي قسم فترة المعارك السابقة إلى مرحلتين:

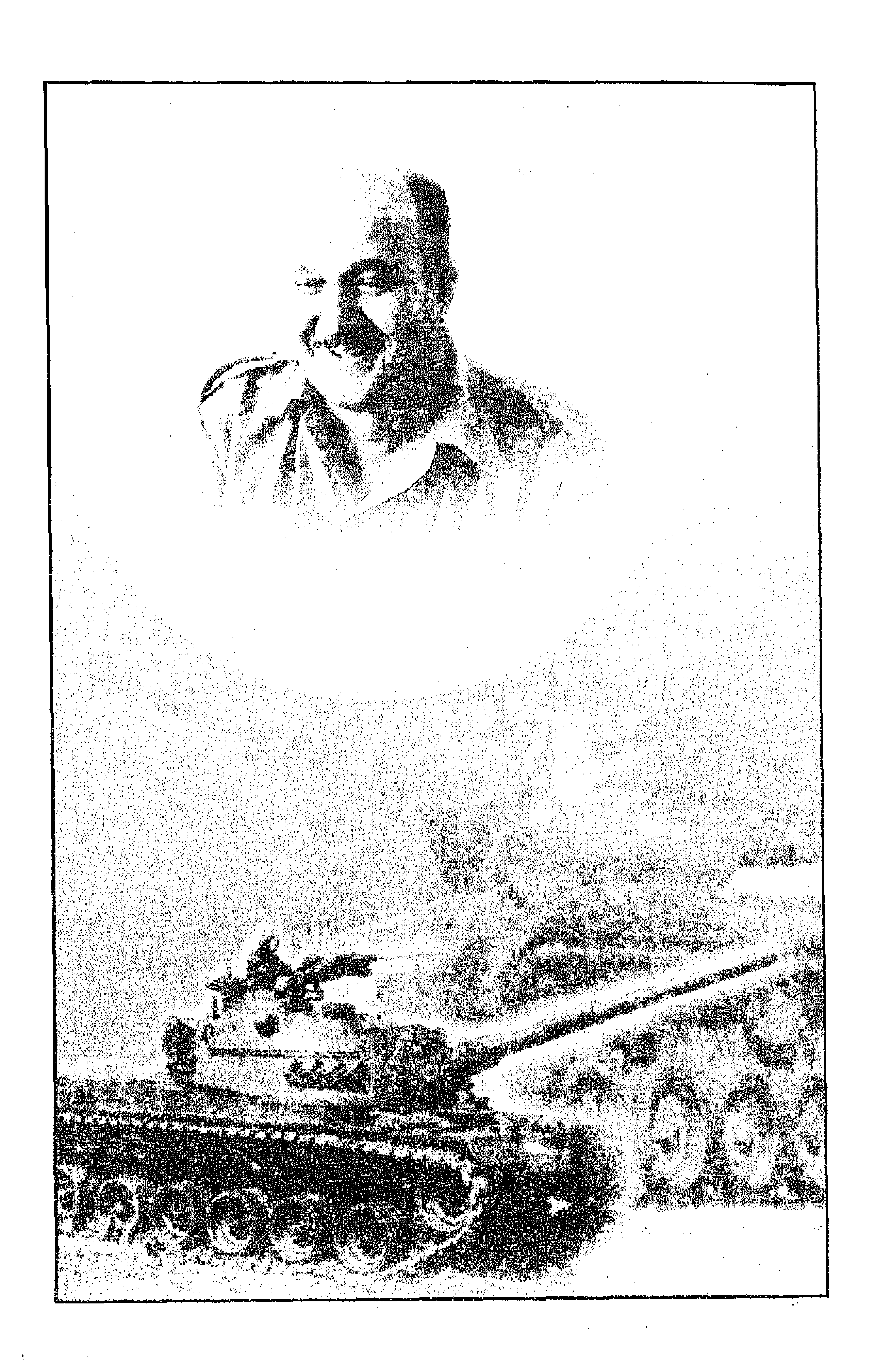
المرحلة الأولى: من سبتمبر عام ١٩٦٢ إلى مايو عام ١٩٦٣ وهي تعتبر من أقسى المراحل حتى وصول القوات المصرية إلى الحدود الشمالية والشرقية وسيطرتها على اليمن سيطرة كاملة.

المرحلة الثانية: من مايو عام ١٩٦٣ إلى نوفمبر عام ١٩٦٣ وشهدت تطهير الجيوب المعادية التي كانت تظهر وتختفي مع الارتزاق والابتزاز، ثم حسمها في النهاية هجوم الربيع الذي قضى على فلول الملكيين في الشمال.

والمرحلة الأولى هي التي شهدت أصلا تزايد حجم القوات بصفة مطردة نتيجة للكمائن التي نجح الملكيون في نصبها للقوّات الصغيرة الحجم التي كانت تصل بغير خبرة إلى اليمن.

التقى مع العميد أ. ح محمد عبد المنعم خليل، رئيس العمليات، حيث سيحل محله، وطلب منه أن يعتبر وصوله قد تأخر شهرًا عن موعده، وذلك حتى يتم تعرفه على طبيعة الأرض وعلى أوضاع قواتنا وزعماء القبائل وجندها وقادتها وتسليحها وولائها... إلخ.

وبعد انتهاء الشهر وإلمامه تفصيلاً بمسرح العمليات، عمل مع زملائه على التخطيط لإعادة انتشار القوات والتدريب الجيد للعمل في مسرح الحرب الجبلي، وتعرضت حياته للخطر في اليمن أكثر من مرة، ربما أكثرها خطورة حادثة اصطدام طائرة هليوكبتر كان يستقلها في أحد الأيام فوق الانحناءات الخلفية لأحد التلال الزلطية على بعد ٢٠ كم شمال صنعاء فوق منطقة أرحب في اليمن، وأثناء عودته في عربة مدرعة عقب الحادث وقبل الوصول إلى صنعاء بحوالى ٥ كم انقلبت العربة المدرعة التي يستقلها فوق منطقة زلطية كانت



يتم تمهيدها لرصفها، وسقطت السيارة من فوق جسر بالطريق على ارتفاع أربعة أمتار على الأرض عند أحد المنحنيات.

لم يطل به المقام لفترة طويلة فوق أرض اليمن، فقد نقل في مارس ١٩٦٥ إلى قيادة القوات البرية بالقاهرة مديرا لمكتب الفريق أول عبد المحسن كامل مرتجى، الذي تولى قيادة هذه القوات عقب تركه قيادة القوات باليمن، وكان قد تولاها بدلا من الفريق أنور القاضي لفترة أطلق عليها المرحلة الثالثة من تاريخ حرب اليمن، حيث شهدت الكثير من استقرار الأوضاع العسكرية والسياسية بل وحتى الاقتصادية، ذلك لأن الفريق مرتجى شرع في رحلة تعمير اليمن، وطلب من القاهرة معونات فنية لإنشاء ورصف الطرق وصيانتها ودعم المستشفيات بالأطباء والأجهزة والأدوية والمهندسين، وطلب كذلك مجموعة من المهندسين الزراعيين بعد أن تدهورت الزراعات التى اشتهر بها اليمن لقرون طويلة كالبن والفواكه، ثم شرع في تطوير الإدارة الحكومية مستعينا ببعض الخبراء المصريين فى الإدارة والاقتصاد لوضع أساس نظام حكومي عصري لم يكن موجودًا أصلا بأي صورة في مجال من مجالات الدولة.

الحل السياسي:

ورغم أن أضخم عملية حربية في اليمن- وهى ما عرفت بالاسم الرمزي «اكتساح»- قد نفذت في عهد الفريق مرتجى وفي أثناء رئاسته

لفرع العمليات، وكانت اكتساحا بحق لآخر معاقل الأمير بدر في قلعته بمنطقة «جبل الغارة» في الشمال، إلا أن الرجل لم يكن يؤمن بأن العمل العسكري هو الحل المطلوب لمشكلة اليمن، بل كان يدرك أن العمل السياسي هو الحل الوحيد لهذه المشكلة، وكتب بذلك تقريرا واضحا بهذا المعنى يؤكد فيه أن مشكلة اليمن لن تحل عسكريا.

وقد اعتبر الغرب أن التحرك المصري إلى اليمن يمثل استنْزَافا لقدرات مصر، بالرغم مما قد يشكله ذلك من تهديد لمناطق البترول وللمواصلات العالمية إليه، ونشرًا للنفوذ السوفييتي بصورة أو بأخرى.

ثامنا: العدوان الإسرائيلى عام ١٩٦٧:

في مارس سنة ١٩٦٥ نقل كمال حسن علي، إلى قيادة القوات البرية بالقاهرة مديرًا لمكتب الفريق أول عبد المحسن كامل مرتجى، الذي تولى قيادة هذه القوات عقب تركه قيادة القوات باليمن.

وفي محاولة للوصول إلى حقيقة الحرب ضد القوات المصرية في اليمن- ومن قراءات عديدة- لم يخطر ببال أحد أن هناك قيادة عضوية قائمة من جهة ما تحت قيادة المخابرات المركزية الأمريكية رشحت روبرت كومر يشرف عليها تخطيطا وتمويلا من التحالف الثلاثي الذي كان يجمع في الخفاء بين المخابرات المركزية وتجار

السلاح ورجال البترول، وتعضدها غرفة عمليات في لندن بها خرائط كاملة للقوات المسلحة ولمسرح العمليات، وكان كومر هو مساعد مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومي، وكان هو الذي يقوم بتنظيم وتنفيذ العمليات الخاصة في فيتنام، كالتصفية الجسدية للفيتناميين الجنوبيين المشتبه في مقاومتهم مع الشيوعيين، وبعد فيتنام ظهر «كومر» على أحداث مسرح اليمن ليوجه كافة خطوط المرتزقة ضد الجيش المصري، لدرجة أن المسئولين في البيت الأبيض الأمريكي كانوا يُسمّون حرب اليمن كلها «حرب كومر الخاصة».

وكان روبرت كومر من أشد المتحمسين للتعاون مع إسرائيل، ويبدو أنه بعد فقدان الأمل في إلحاق ضربة قاضية بالجيش المصري في اليمن أخذ يحول تفكيره إلى سيناء، ومن أجل ذلك راح يخطط لصفقة السلاح الألمانية الكبيرة المشهورة والتي اعترض عليها العرب، فقرر جونسون تعويض إسرائيل عنها، وبذلك انفتحت مخازن السلاح الأمريكية تماما للإسرائيليين لكي يرتبوا للمخطط الذي سينفذونه في عام ٦٧، علاوة على أن إسرائيل كانت قد نجحت بالفعل في تسلم نسبة كبيرة من الصفقة الألمانية، كان جونسون في ذلك الوقت يمر بأشد معاناته من الصعوبات التي يلاقيها في الحرب الفيتنامية، وفي الوقت نفسه أيضًا وصلت علاقاته بعبد الناصر أقصى ذروتها من التردِّي عندما قرر وقف تصدير القمح في أشدِّ لحظات احتياج مصر

إليه، ولم يمكن تدارك موقف النقص المخيف في مخزونه إلا بعد تدخل الاتحاد السوفييتي وتحويله لمسار عدد من السفن المتحركة في البحر المتوسط لتفرغ حمولتها من القمح في ميناء الإسكندرية بدلا من الاتجاه إلى ميناء «أوديسا».

ولم يكن موقف مصر مع إنجلترا أقلّ سوءا من موقفها مع الولايات المتحدة، فقد كانت الإمبراطورية البريطانية تلفظ الأنفاس الأخيرة في ذلك الوقت، وكانت نظرتها إلى عبد الناصر أنه الشبح الذي قلع جذورها من القناة، في شمال البحر الأحمر، وراح يُلاحقها ليطردها من باب المندب في جنوبه، ولذلك يقال إنه في هذه الأيام عرضت على جونسون خطة عدوان ٦٧، الذي سيقوم فيها الأسطولان الأمريكي والبريطاني بدور لم يشهد التاريخ مثيلاً له في الدهاء السيكولوجي العميق، برغم أنهما لم يطلقا طلقة واحدة، ولقد أَحَسّ عبد الناصر بالخطر في ذلك الوقت، فوجد من الضروري تصفية الجوّ مع السعودية وسحب الجيش المصري من اليمن، فكانت زيارته المشهورة إلى جدّة لمقابلة الملك فيصل في أغسطس ٦٥، ولكن كل الظواهر أكدت بعد ذلك أن اتفاق جدة لم يخرج عن كونه حبرًا على الورق، فقد كانت إنجلترا مُصرَّة على احتجاز الجيش المصري والإمساك به لأطول زمن ممكن داخل مصيدة اليمن.

نشاط موشى ديان:

وبقدوم عام ١٩٦٦ كان موشى ديان يتردَّد على واشنطن كثيرًا، لزيارة مستشار الأمن القومي، وكان السبب الظاهر الذي يقدِّم للصحافة ولغيرها من وسائل الإعلام، هو أنه جاء يقدم آراءه عن الحرب في فيتنام، بعد أن قام بنفسه بزيارة ميادين القتال هناك، أما الأمر الباطن فكانت كل الدلائل تشير إلى أنه يبحث الكثير من اللمسات الأخيرة في خطة عدوان ٦٧ مع المسئولين في المخابرات الأمريكية المركزية.

ولقد توطدت العلاقة كثيرًا بين البلدين، وكان أصدق مؤشر على ذلك زيادة معونة الولايات المتحدة لإسرائيل في ذلك العام (١٩٦٦) إلى ١١٠٠ مليون دولار أي عشرة أمثال ما كانت عليه عام (١٩٦٥)- أما مساعدات السلاح، فقد زادت زيادة كبيرة هي الأخرى فاقت كل توقع.

والملاحظ أنه اعتبارًا من هذه الفترة، بدأت إسرائيل في زيادة سخونة التوتر بالمنطقة تجاه سوريا والأردن- فكانت اشتباكاتها الجوية مع الطائرات السورية في أغسطس ١٩٦٦ (سقوط ١١ طائرة سورية) وغاراتها على قرية السموع في نوفمبر وغيرها من القرى الأردنية، وكان واضحًا أن المقصود من هذه الاشتباكات كلها هو إحراج مصر

أو جذب قدمها إلى المعركة وهي غير مستعدَّة بينما ثلث قواتها موجود في اليمن.

ولقد حضر إلى مصر بالفعل وفد سوري يطلب عملاً مشتركًا هجوميًا سريعًا لردع إسرائيل، وتم إعداد مخطط إسرائيلي أمريكي بريطاني لاستدراج جمال عبد الناصر ليدفع بقواته إلى سيناء ويحشدها عند الحدود في الأمام ثم يطلب بنفسه سحب قوات الطوارئ الدولية، هي أمر يمكن أن يوكل إلى خبراء الحرب النفسية ليبثوا دعايتهم التي تتهم عبد الناصر بالجبن والاختباء خلف قوات الطوارئ الدولية، فإذا ما استفز إلى تحريك قواته إلى سيناء، وطلب هو سحب هذه القوات بنفسه، فسيكون عندئذٍ في نظر العالم الرجل الذي يسعى إلى الحرب والتحرش بإسرائيل الوديعة التي تسعى للسلام.

وهنا تتدخل أمريكا بأسطولها السادس مُتخذة دور الشرطي المحلي الذي ليس له أي مصلحة في الحرب سوى تهدئة الطرفين ونصحهما في براءة الأطفال بضبط النفس، فيضبط عبد الناصر نفسه على مضض، بينما لا تضبطها إسرائيل.

وعندئذٍ يبدأ عُدوان ثلاثي جديد من نوع مبتكر يتّسم بالدهاء، وكانت قمة الدهاء فيه أن وسائط الدعاية الإعلامية (الميديا) التي استخدمت في استفزاز عبد الناصر واستدراجه إلى الشرك، كانت وسائط عربية.

وربما يكون ذلك بعيدًا عن موضوعنا، ولكن هذا ما حدث وأدت إليه الأحداث في المنطقة.

في أواخر العام ١٩٦٦ عُين كمال حسن علي، قائدًا للواء الثاني المدرع، ولم يكن غريبا على هذا اللواء، فقد تولى رئاسة أركانه لمدة عام الفترة من ٥٧- ١٩٥٨، قبل سفره في بعثة إلى الاتحاد السوفييتي، وأعيد تسليحه بدبابات ت ٥٥ عقب زيارة المشير عامر للاتحاد السوفييتي في ٧ نوفمبر عام ١٩٦٦.

وفي ١٣ مايو اجتمع في القاهرة مندوب المخابرات السوفييتية مع مدير المخابرات العامة المصرية ليؤكد في رسالة من موسكو وجود ١١ لواءً اسرائيليا تتجمع أمام سوريا، وبدأ الحشد الغربي بالقرب من دول المنطقة، وعلى ذلك رفعت درجة الاستعداد للقوات المسلحة في يوم ١٤ مايو ١٩٦٧ وتصاعدت الأحداث بعد ذلك.

وتحرَّك اللواء الذي يقوده آخر ضوء يوم ١٤ مايو على طريق السويس فالشط ثم القناة، وتحرك نحو الشرق مجتازا مضيق متلا، وانتشر اللواء في منطقة تمادا (تبعد ١٠٠ كم من الحدود تقريبا).

توالت المهام التي كلف بها اللواء قيادته بـ ١٤ مهمة بما يتبعها من استطلاع للمهام والتحضير للعمليات العسكرية.

وقد تعددت عوامل القصور في الإعداد لهذه الحرب منها:

- عدم الإعداد الجيد لمسرح العمليات والقوات.

- تعدد القيادات في الجبهة، مما فاقم من الإرباك العسكري، حيث كانت هناك قيادة المنطقة الشرقية وقيادة الجبهة بقيادة الفريق أول عبد المحسن مرتجى، بخلاف القيادة العامة بالقاهرة.

- تناقض التصريحات والبيانات.

- التناقض بين القيادة السياسية والقيادة العامة للقوات المسلحة.

توالت الأحداث في مصر وإقليميا منها زيارة شمس بدران وزير الحربية في ذلك الوقت في الأيام الأخيرة من مايو، إلى الاتحاد السوفييتي، وزيارة الملك حسين لمصر في ٣٠ مايو ١٩٦٧ وطلبه الفريق عبد المنعم رياض لكي يكون قائدًا للقوات الأردنية، ثم حدث العدوان في الساعات الأولى من يوم ٥ يونيو.

وتعرّض اللواء لهجمات جوية متتالية، وصدرت إلى اللواء الأوامر بالانسحاب في ٦ يونيو إلى ممر الجدى لستر انسحاب وحدات الجيش، ثم الانسحاب بعد ظهر ٧ يونيو إلى غرب القناة، قدر أنه قطع أكثر من ٣٥٠ كم سيرًا بالدبابات، وأثناء الانسحاب أطلقت إحدى الطائرات صواريخها على عربته فانقلبت، وأصيب في الجانب الأيمن من البطن، وأصيب بنزيف حادٍّ، نقل على إثره إلى مستشفى الهلال بالسويس وذلك يوم ٨ يونيو.

وفي مستشفى السويس اكتشف وجود ٦ شظايا منتشرة في جدار البطن، وبعد إجراء جراحة له بقي في المستشفى لمدة يومين، ثم نقل

مع أصغر الأشقاء له الدكتور فؤاد في عربة إسعاف يوم ١١ يونيو إلى مستشفى المعادي بالقاهرة، وبعد أسبوع أجريت له جراحة ثانية، واستطاعوا أن يستخرجوا شظية واحدة، أما باقي الشظايا الخمس التي أصيب بها فبقيت في أماكنها في بطنه حتى نهاية العمر، وفي ٢٨ يونيو غادر المستشفى لفترة نقاهة مؤقتة مع استمرار علاج الجروح بالأشعة السطحية.

في صباح أول يوليو، عُين نائبا لمدير شئون ضباط القوات المسلحة مع اللواء أحمد منير عبد الرحيم مدير إدارة شئون الضباط، وبعد عشرة شهور من العمل فى إدارة شئون الضباط، صدر قرار بعودته مرة أخرى إلى التشكيلات الميدانية رئيسا لأركان فرقة مدرعة شكلت من الأسلحة الحديثة، هي الفرقة ٢١ المدرعة التي تمركزت في منطقة أبو صوير غرب الإسماعيلية.

تاسعًا: فترة حرب الاستنْزاف:

عاش كمال حسن علي، مع القوات المسلحة المصرية، هذه الحرب. ويمكن القول إنه لولا حربُ الاستنْزاف ما كانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة، وما كان من الممكن عُبور القناة واقتحام خط بارليف بهذه الجرأة وبهذا الاقتدار الذي تحاكى عنه العالم في ذلك الوقت، وستظل كتب التاريخ العسكري تكتب عنه لسنوات وأجيال عديدة، والواضح أن حرب الاستنْزاف كانت تجربة جَسُورة بقدر ما كانت مدرسة عظيمة.

في هذه المدرسة عَرَف الجندي المصري أشياء كثيرة عن الجندي الإسرائيلى، وتعامل معه وجهًا لوجه، بل أمسك به لأول مرة بين يديه، وراح يتحسس لحمه وعظامه ويتفرس ملامح وجهه عن قرب، رآه بشرًا عاديا فيه كل صفات بني البشر وضعفهم، وقد سقطت عن وجهه أقنعة الأسطورة التي نسجتها من حوله أبواق الدعاية البراقة.

كان معظم الجنود المصريين قد دخلوا الحروب السابقة وخرجوا منها دون أن يروا جنود العدو عن كثب.

كل ما يذكرونه عن هذه الحروب أنهم كانوا يشحنون إلى ساحتها بالليل، فإذا ما طلع النهار جاءهم أمر بالانسحاب لسبب لا يدركونه، فإذا ما بدأ تحركهم إلى الخلف انهمرت عليهم حمم القنابل والنابالم، تتساقط عليهم كالشهب من السماء أو تنفجر من تحت أقدامهم كأتون فوق الأرض، وقبل أن يتبينوا من أين جاءتهم الحمم أو كيف أدركتهم الشهب، يجدون أنفسهم وقد أصبحوا صرعى أو جرحى أو مساقين إلى الخلف في أقسى وأمَرّ رحلة عذاب، تنتهي في نهاية الطريق إما بالهلاك أو بلوم اللائمين وعتاب العاتبين، حتى أن كلمة حرب أصبحت ترتبط فى عقولهم بكلمة «انسحاب».

فلقد اشتملت هذه الحربُ فيما اشتملت على العديد من الإغارات البرية المخططة، والتي قام بها رجالٌ مدربون من قوات الصاعقة، ومن جنود المشاة الذين يدعمهم في رحلتهم الجسورة أفراد من المهندسين

ومن باقي العناصر المتخصصة، كانوا يعبرون القناة إلى مهامهم الانتحارية أحيانًا تحت جُنح الليل، وأحيانا في وضح النهار، بقصد أن يقضوا على نقط العدو القوية فيهدموا تحصيناتهم، ويفاجئوا دورياته المنتشرة فيقتلوا منها ما يقتلون، ثم يأسرون الباقي منها ويصطحبونه معهم في رحلة العودة إلى الضفة الغربية، وهناك يقرأ باقي زملائهم في عُيون الأسرى نظرات الرُّعب عندما يسقطون من الإعياء فوق الأرض، وتسقط معهم على الأرض نفسها أسطورة جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يُقهر، عندئذ تتملَّك جنودنا رغبة جياشة في ملاقاة هذا العدو الذي سمعوا عنه ولم يروه.

واشتملت هذه الحرب أيضا- فيما اشتلمت- على العديد من المهام والدوريات التي كان رجالُ الصاعقة والضفادع البشرية يرتبونها ليخرجوا في رحلات بحرية بعيدة تمتد تحت الماء لمئات الأميال، ثم يتسللون بعدها إلى مواني العدو- كما حدث في ميناء إيلات- ليعملوا النسف والتخريب والتدمير في العديد من قطعه البحرية التي لا يكاد جنودُها يفيقون من صدمة المفاجأة حتى يجدوا أنفسهم غرقى تحت الماء، وبعدئذ يعود جنودُنا لقواعدهم وقد مسحوا عن جبينهم ذكرى هزيمة لحقت بأقدارهم، ولم يكن لهم دور في صنعها وإنما كانوا ضحاياها.

وما كان يحدث أيضًا من القوات البرية والبحرية، كان يحدث مثيله مع القوات الجوية التي كان طيارُوها يخرجون للإغارة على مواقع العدوّ ودَكّ دفاعاته الأرضية أو للاشتباك مع مقاتلاته الجوية لينالوا من طائراته لأول مرة ما يجعلهم يذوقون حلاوة النصر بعد أن خاضوا تجربتين مريرتين متتاليتين لم يعطوا فيها فرصة ليحققوا ذاتهم في قتال يدور بين رحبات السماء.

حدث كل ذلك خلال سنتين متتاليتين من حرب الاستنْزاف لم يكف فيها هديرُ المدافع، من مختلف الأنواع والأعيرة، عن ضرب تحصينات العدوّ المرئية في الأمام، ضربًا مباشرًا، أو عن قصف مراكز رئاسته ونقط تموينه غير المرئية في الخلف بالضرب غير المباشر فتحيلها المدافعُ بعيدةُ المدى إلى أكوام من رماد ودمار.

وبالطبع كانت كل هذه الأسلحة ومختلف الأعمال التي تقوم بها الدوريات العابرة، لا تقصد إلا أن تنقل للعدو رسالة واحدة وإن كانت كلماتها حمما وسطورها جحيمًا، كانت الرسالة تقول «عليكم أن تراجعوا نظرياتكم عن الحدود الآمنة، فلا أمان لكم وراء مانع مائي أو جسر من تراب أو حاجز من أسلاك».

فالأمان أمانُ السلام العادل، وليس أمان الحرب التي تُدار خططها الملتوية في الظلام ووراء كواليس المخابرات المغلقة.

برغم صفقات الأسلحة الأمريكية لإسرائيل- منها صفقة طائرات مقاتلة قاذفة من طراز سكاى هوك وفانتوم بلغ عدد ١٠٥ طائرة ومعها ١٣٥ طائرة هليوكبتر من طراز سيكورسيكى ٥٣- لم يُثن ذلك عزمَ مصر عن مُواصلة شَنِّ عملياتها الخاصة والمتنوِّعة ضد الأهداف العسكرية الإسرائيلية شرق القناة وإنزال الخسائر بها، مثل عمليات لسان بور توفيق والشط، ثم امتدَّ نطاق عملياتها إلى أماكن أخرى على الساحل الشمالي لسيناء، مثل مصفق وبالوظة ورأس مسلة على الضفة الشرقية لخليج السويس، حتى ردّدت وسائلُ الإعلام الغربية هذه الأحاديث عن حرب الاستنْزاف، ومنها الصحف الأمريكية بمناسبة هذه الذكرى مقالا تحت عنوان: «الكآبة تتزايد في إسرائيل» جاء فيه: «.. في الذكرى الثالثة لحرب يونيو عام ٦٧ اتسمت حالة الإسرائيليين بالكآبة والضياع، وبدءوا يتساءلون عمَّا إذا كانوا قد كسبوا حربًا بالفعل أم أنها مجرد الجولة الأولى منها»، وغيرها أيضًا من الصحف الأجنبية الأخرى.

حائط الصواريخ:

ولقد تمكّنتْ مصرُ- برغم القصف الشرس المتواصل الذي أمر به شارون- من أن تقيم حائط الصواريخ، متجاوزة كل الأخطار والصعاب، هذا الحائط الذي أقيم ممتزجا بدماء وأرواح مئات الشهداء

الذين سقطوا، من العمال والجنود المصريين، وتم ذلك في المدة المحددة له قبل يوليو عام ١٩٧٠، تحت وابل من النيران والقنابل الشديدة الانفجار، حتى وصل مُعدَّل الحمولات التي تلقيها الطائرات الإسرائيلية في بعض الأيام إلى ١٠٠٠ طن في اليوم الواحد.

وعندما اكتمل بناء الحائط فوجئت القيادة الإسرائيلية - عندما دفعت بطائراتها الفانتوم والسكاى هوك لتوجيه ضرباتها الجوية المعتادة ضدَّ المواقع المصرية في منطقة القناة- بتساقط هذه الطائرات فوق المواقع المصرية، بفعل الصواريخ الجديدة وأسْر عدد من طياريها.

مبادرة روجرز:

وفي هذه الأثناء أيضا اقتنعت الولاياتُ المتحدة بضرورة تقديم مبادرة لوقف إطلاق النار، وكان ذلك في ١٨ يونيو عام ١٩٧٠، وقد ارتكزت المبادرة على وقف إطلاق النار لمدة تسعين يومًا، مع العودة إلى قرار مجلس الأمن الصادر في نوفمبر عام ١٩٦٧ بإحياء مهمة السفير جونار يارينج ممثل السكرتير العام للأمم المتحدة.

وفاة عبد الناصر:

ترتب على مبادرة روجرز مضاعفات سياسية عديدة في العالم العربي، وهاجمتها كل من سوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية والعراق هجومًا عنيفًا، وادَّعى بعضُها أنها بيعٌ للقضية الفلسطينية،

هذا في الوقت الذي كانت فيه مذبحة أيلول الأسود تجري في الأردن، حيث قصفت المدفعية الأردنية المعسكرات الفلسطينية بالمدافع، وكان ذلك عقب صراع طويل بينهم وبين الملك حسين.

وحاول عبد الناصر إيقاف المذبحة، فدعا إلى عقد مؤتمر قمة طارئ يحضره الملوك والرؤساء العرب في القاهرة لحل هذا النِّزاع، خصوصًا بعد أن هددت سوريا بالتدخل العسكري لصالح الفلسطينيين، كما هدَّدت إسرائيل بالتدخل العسكري ضد الفلسطينيين، وعُقد المؤتمر في ٢٦ سبتمبر، وبعد انتهائه قام الرئيس جمال عبد الناصر بتوديع كل الملوك والرؤساء، وعند توديع آخرهم وكان أمير دولة الكويت شعر بهبوط، وعرق غزير، فتوجَّه إلى منْزله، حيث وافته المنية بعد أزمة قلبية شديدة.

وعندما أعلن أن الجنازة ستكون بعد ثلاثة أيام، كان لابد من الخروج عن مشاعر الحزن إلى أرض الواقع، وكان لابد أن يدرك الجميع داخل الفرقة المدرعة التي يقودها كمال حسن علي، أن أهدافنا لن تتغير بوفاة القائد، ولذلك بادر على الفور إلى رفع درجة الاستعداد لكل قيادات الفرقة حتى مستوى اللواء والكتائب، وسرعان ما انشغل الجميع في مشروع تدريبي خارجي، أقبلوا عليه بنفس الروح والحماسة التي شاركوا بها من قبل في إقامة قواعد الصواريخ المؤقتة والاستعداد لمعركة فاصلة «قادمة» وظل كمال حسن علي قائدًا للفرقة ٢١ بالجبهة

حتى يناير ١٩٧١، أي بقي بها لمدة عامين ونصف كرئيس لأركان الفرقة ثم قائدا لها.

عاشرا: فترة حرب أكتوبر ١٩٧٣:

استكمالاً لمسيرة العمل بالقوات المسلحة، نقل اللواء كمال حسن علي، للعمل رئيسًا للعمليات في هيئة العمليات للقوات المسلحة في يناير عام ١٩٧١، وهو الفرع الذي يختص بإعداد القوات المسلحة للعمليات مع اللواء محمد عبد الغني الجمسي، الذي كان يشغل رئيسًا لهيئة العمليات بالقوات المسلحة، وكانت فترة صعبة في إطار الإعداد لمعركة فاصلة لتحرير الأرض المحتلة من سيناء.

وفي ١٥ مايو من عام ١٩٧١، نقل كمال حسن علي، رئيسًا لأركان سلاح المدرعات بدلاً من اللواء عمر خطاب، مع اللواء صلاح شريف مدير سلاح المدرعات في ذلك الوقت، والذي توفي بعد مرضه، وتولى كمال حسن علي، منصب مدير المدرعات أوائل العام ١٩٧٢.

في ٢٤ أكتوبر عام ١٩٧٢، عقد الرئيس السادات فى منْزله بالجيزة، الذي يُطل على النيل، اجتماعا خاصا للمجلس الأعلى للقوات المسلحة، أعلن فيه أن القوات المسلحة أصبح محتما عليها أن تقاتل من أجل تحرير سيناء بما لديها من أسلحة محدودة، وإلا فسوف تنتهى قضيتنا إلى السكوت أو ا لموت.

وبعد عام واحد، وفي مساء أول يوم من أكتوبر عام ١٩٧٣، كان الرئيس السادات يجتمع للمرة الثانية بالمجلس الأعلى للقوات المسلحة، ولكن في مركز العمليات تحت الأرض ليُصدر قراره بالحرب، والذي أكَّد فيه أن الهدف الاستراتيجي الذي يتحمل فيه المسئولية السياسية، هو تحدِّي نظرية الأمن الإسرائيلي، عن طريق عمل عسكري على قدر إمكانات القوات المسلحة، ويكون هدفه إلحاق أكبر قدر من الخسائر بالعدو وإقناعه بأن مُواصلة احتلاله لأراضينا تفرض عليه ثمنا لا يستطيع دفعه.

وبعد خمسة أيام، بدأت حرب أكتوبر في الساعة الثانية من ظهر يوم السبت الموافق ٦ أكتوبر عام ١٩٧٣.

كان السادات قد تولى أمر البلاد، بعد وفاة عبد الناصر وتشييع الجماهير لجنازته إلى مثواه الأخير في أول يوم من أكتوبر عام ١٩٧٠.

وفى السنوات الثلاث التى وقعت بين أول أكتوبر عام ١٩٧٠ وأول أكتوبر عام ١٩٧٣، تحدَّد الطريقُ إلى الحرب التي عرفها العالم بحرب أكتوبر ٧٣، وعرفناها نحن العرب باسم حرب العاشر من رمضان.

وفي إطار الإعداد للحرب، كان على الرئيس المصري أنور السادات أن يتحرك في اتجاه أربعة محاور:

الأول: محور الاتحاد السوفييتي، محافظا على علاقة مصر معه باعتباره المصدر الوحيد للسلاح.

الثانى: محور الولايات المتحدة الأمريكية، بقصد التقارب، على أمل في حل سلمي تفرضه على إسرائيل.

الثالث: المحور العربي، الذي كان غالبية الرؤساء العرب على علاقة وطيدة مع السادات.

الرابع: المضيّ على طريق الحرب إعدادًا وتدريبا وتسليحا وتخطيطا، فهى الأمل الوحيد المرتقب في نهاية الطريق.

ونظرا لأن إدارة المدرعات تختص فنيا بجميع المركبات ذات الجنْزير في كل وحدات القوات المسلحة، في داخل إدارة المدرعات أو في الأسلحة الأخرى، كما أنها المسئولة عن توفير احتياجات القوات المسلحة من الدبابات والمركبات ذات الجنْزير وورش اصلاحها وصيانتها، كذلك هي المسئولة عن التدريب الفني لأطقم هذه المعدات وكذلك التدريب التكتيكي والمراجعة الفنية- فقد اقتضى منه ذلك للإعداد لحرب أكتوبر المرور على كل الوحدات المدرعة، وهي تمثل كتائب الدبابات في ألوية وفرق المشاة أو في الألوية والفرق المدرعة والألوية المدرعة المستقلة أو جميع المركبات ذات الجنْزير على مستوى القوات المسلحة للوقوف على مستواها ومطالبها الفنية والتدريبية.

وكان لابد من سرعة النهوض بالوحدات التعليمية الخاصة بإعداد أفراد المدرعات من ضباط وضباط صف وجنود.

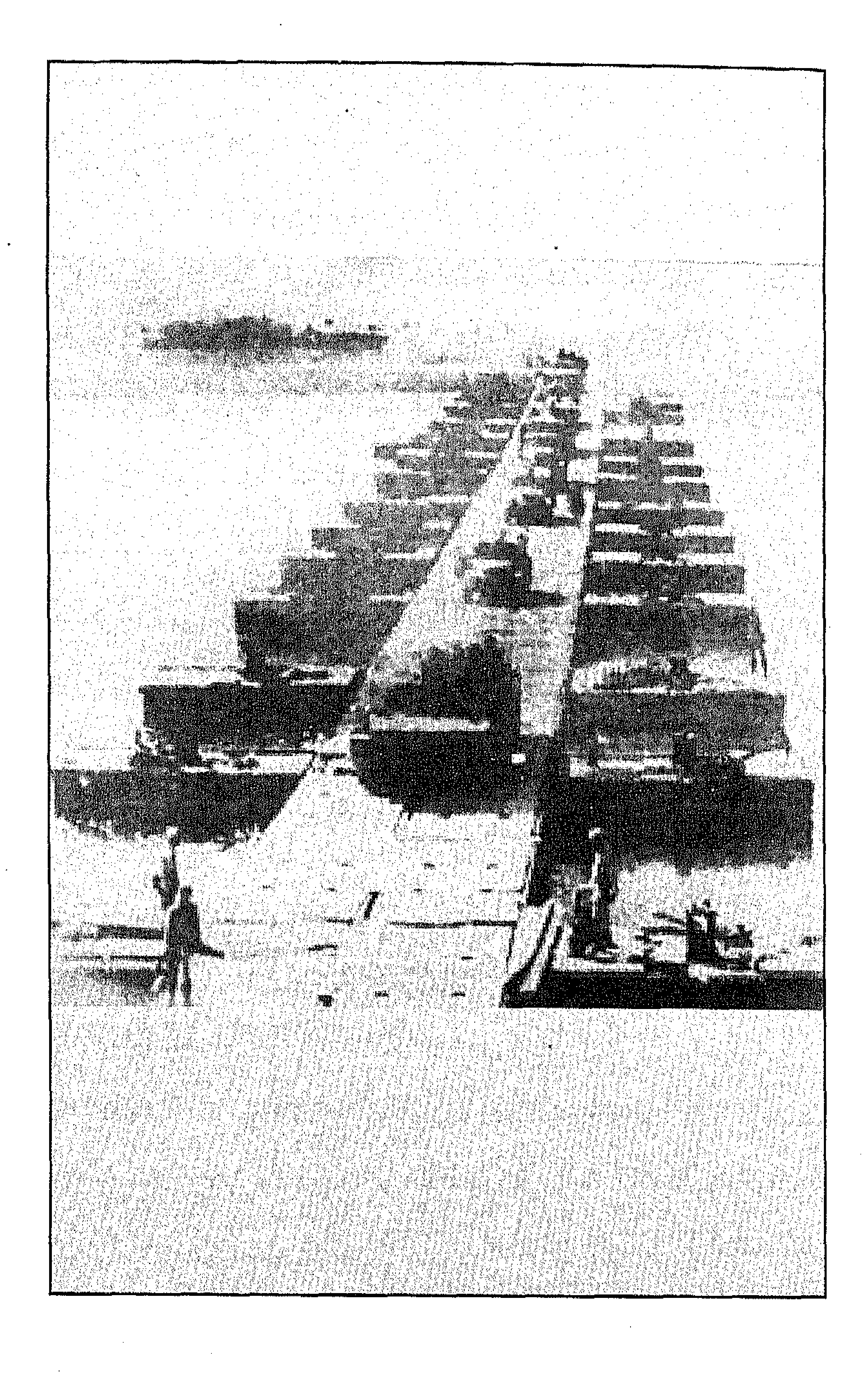
ولقد شمل الإعداد لحرب أكتوبر سلسلة من التجارب على الكفاءة القتالية للمدرّعات، وتم رفع مستواها القتالي عن طريق إضافة صواريخ الدخان وأجهزة الرؤية الليلية وآلات تقدير المسافة بالليزر التى استوردت كلها من دول غربية كإنجلترا وفرنسا، ويقول في مذكراته أيضا: «استطعنا الحصول على أنواع من طلقات الدبابات لم يكن الاتحاد السوفييتي قد أحاط مصر علمًا بوجودها لديه، واضطر لتوريدها بعد إلحاح في طلبها منه، مثل طلقات السابو والحشوة الجوفاء، وهي طلقات خارقة للدروع تستخدم في قتال المدرعات.

وعلى المستوى الفني، قام مهندسُو المدرعات بجهد خارق، من أجل رفع المستوى الفني والصلاحية القتالية، وبخطة دقيقة شملت كافة المركبات ذات الجنْزير في القوات المسلحة.

وبالنسبة للأفراد، شكلت إدارة المدرعات ما يقرب من ثلاث لواءات احتياطي جرى تدريبها قبل وأثناء المعركة، بحيث كان في الاستطاعة تعويض الخسائر بوحدات كاملة وبسرعة فائقة كلّما اقتضى الأمر.

ولا شك أنّ ما بذلته القوات المسلحة من عَرَق للإعداد لحرب أكتوبر، قد وَفَّر الكثير من الدم.

وبدأت ملحمة ٦ أكتوبر، وكانت الخطة تقضي بأن تقوم القوات الجوية في كل من مصر وسوريا بتوجيه ضربة جوية في وقت واحد



ضد الأهداف العسكرية المعادية المحددة في سيناء والجولان، مثل القواعد والمطارات ومواقع الصواريخ المضادة للطائرات ومحطات الرادار ومرابض المدفعية ومراكز القيادة والسيطرة ومراكز الإعاقة.

وكانت المعارك تسير سيرًا حسنا، ولصالح الجبهتين المصرية والسورية، لولا التدخل الأمريكي في الحرب. وقد تكشف ذلك بعد أن نَشَرَ كيسنجر مذكراته في البيت الأبيض، وأفصح فيه صراحة عن دور الولايات المتحدة الأمريكية في حرب عام ١٩٧٣، وبعد أن نشر أيضا ديفيد أليعازر رئيس أركان حرب القوات الإسرائيلية مذكراته التي أوضح فيها خبايا هذا الدور. وقد كان يعتقد أن التدخل العسكري الأمريكي هو مجرد تدخل اقتصر على إمداد إسرائيل بالأسلحة خلال جسر جوي أثناء المعركة، وإنما الحقيقة أن التدخل العسكري الأمريكي كان له عدد من الأشكال التي لولاها لكانت الصورة كئيبة جدًّا على إسرائيل. ومن هذه الصور:

١- التشاور العسكرى بالخطط مع البنتاجون الأمريكى (تليفونيا).

٢- المشاركة المباشرة في خطط إسرائيل المضادة.

٣- المعاونة بالاستطلاع عن طريق الأقمار الصناعية.

٤- إرسال قطع غيار ومعدات الكترونية وأسلحة متطورة بواسطة طائرات العال المدنية.

٥- تعويض إسرائيل عن كل ما تفقده من طائرات الفانتوم ودبابات م - ٦٠ باستخدام طائرات أمريكية تهبط في العريش وإسرائيل.

٦- إمداد إسرائيل بطيارين أمريكيين مزدوجي الجنسية.

٧- الاستطلاع بطائرة أمريكية من طراز سي آر - ٧١، وهي طائرة تطير على ارتفاع أعلى من ٢٥ كم وبسرعة تصل إلى ٣ أمثال سرعة الصوت. وقامت هذه الطائرة باختراق المجال الجوى المصرى يوم ١٣ أكتوبر، بادئة خط طيرانها من البحر المتوسط لتطير فوق جبهة القناة كلها من بورسعيد إلى العريش ومنها إلى البحر الأحمر، لاستطلاع موانئ الغردقة وسفاجا وكل مطاراتنا ووسائل الدفاع الجوي بالمنطقة، ثم التفت غربا إلى الوجه القبلي فوق مدينة قنا، ثم شمالا إلى الدلتا لاستطلاع باقي مطاراتنا ووسائل الدفاع الجوي والاحتياطيات. وبعد أن استكملت رحلتها عادت إلى البحر المتوسط لتهبط في قاعدتها في أوربا، ولم تستطع بالطبع وسائل دفاعنا الجوي أن تعترض هذه الطائرة أو تُسقطها، لأنها كانت تطير خارج مدى صواريخ الدفاع الجوي كما أن مقاتلاتنا لم تكن تستطيع اللحاق بها لفارق السرعة.

ويقول المشير الجمسي: هكذا أصبحت أوضاع وحجم قواتنا بالجبهة وفي عُمق الدولة كتابا مفتوحا أمام إسرائيل، وكان ذلك أول تدخل عسكري أمريكي يتم بطريقة مباشرة سافرة لصالح إسرائيل، بالإضافة إلى عملية الجسر الجوي الذي استخدم مطار العريش.

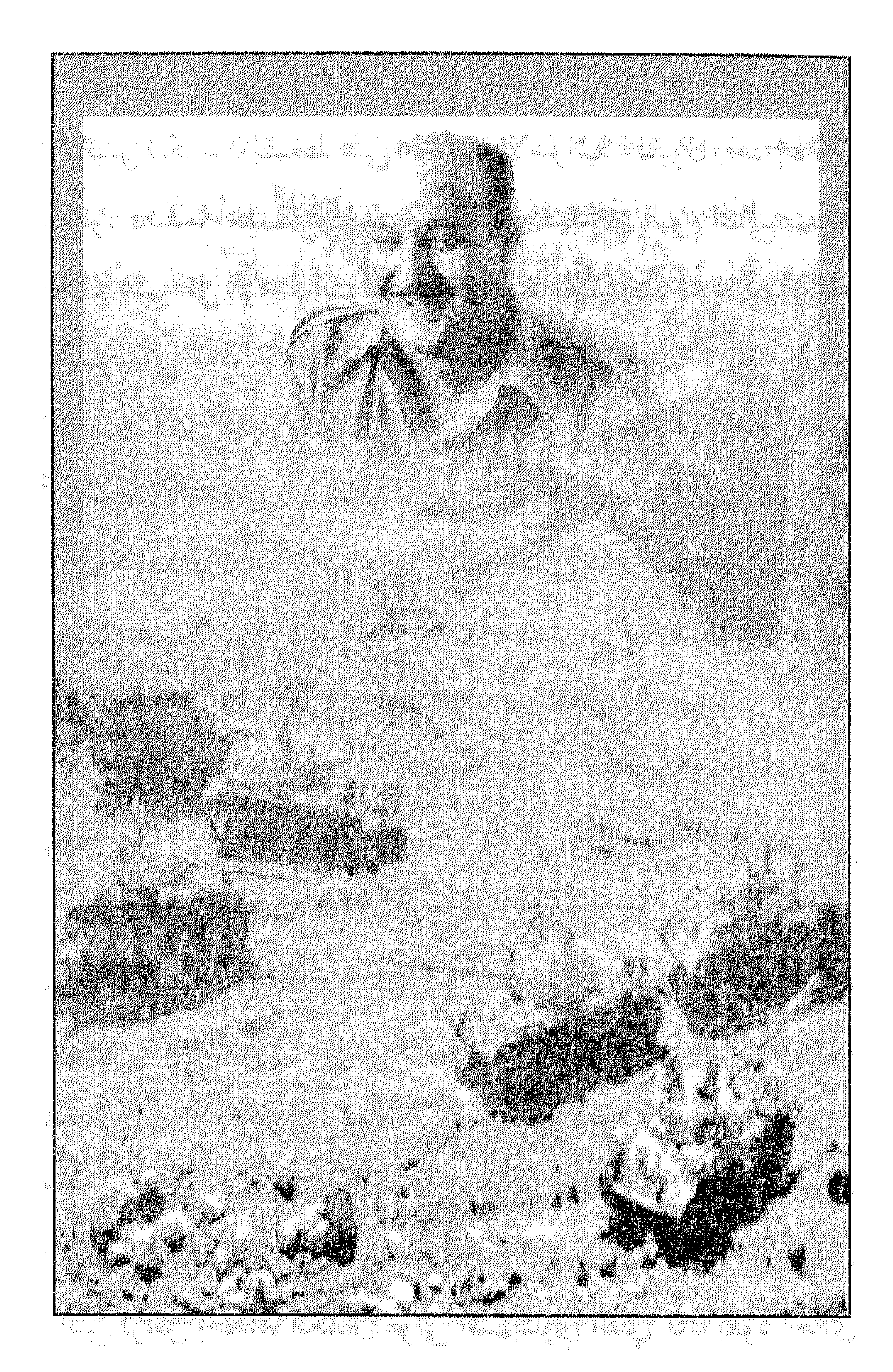
هذا وقد قامت طائرة الاستطلاع الأمريكية نفسها باستطلاع منطقة القناة للمرة الثانية يوم ١٥ أكتوبر، وبعدها مباشرة دارت معركة الدفرسوار على الشاطئ الغربى للقناه والتى عرفت باسم الثغرة.

الثغرة ومعركة البترول:

كانت الثغرة أيضا بمثابة الضارة النافعة... أو بمثابة الشدائد التي يُعرف عندها الأشقاء.. في هذه الأثناء ظهر التضامن العربي على حقيقته.

فإلى جانب القوات التي وصلت إلى مصر (وإلى سوريا) من البلاد العربية سواء على سبيل التضامن الرمزي أو الواقعي، كالقوات التي أرسلت بها الجزائر والمغرب والسعودية والسودان والكويت وغيرها، كان للبترول العربي دور مؤثر في هذه الحرب، حيث استخدم بطريقة ناجحة تفوق استخدامه في كل الجولات السابقة- فلقد نبذ العربُ كل خلافاتهم التي استمرّت أثناء حرب عام ٦٧، وبدأت الدول المنتجة للبترول تخفض من إنتاجها بنسبة تتراوح بين ٥٪ إلى ١٠٪ تزايد بعد ذلك بنسبة ٥٪ كل شهر تال أثناء القتال، ولقد صنف المستهلكون حسب مواقفهم من القضية العربية ومن إسرائيل.

ولكن حدث في يوم ٢٠ أكتوبر، بعد حدوث الثغرة، أن قامت السعودية بحظر كل صادرات بترولها إلى الولايات المتحدة.



ويقول أوبالانس: ربما كانت هذه القنبلة الأخيرة هي التي جعلت الرئيس نيكسون يضغط على الحكومة الإسرائيلية لقبول وقف إطلاق النار. فعندما أعلنت السعودية خفضا جديدا في اليوم التالى بنسبة ٢٠٪ على كل الإمدادات للغرب، راحت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي تدعوان علنا إلى وقف إطلاق النار في الشرق الأوسط، وأقر مجلس الأمن القرار رقم ٣٣٨ الذي يدعو إلى سريان وقف إطلاق النار في موعد لا يتجاوز ١٢ ساعة من لحظة صدور القرار.

ولاشك أن هذا الإجراء من قبل السعودية أوضح للعالم كله- وبالأخص لأمريكا وإسرائيل- أن ما حدث من تباعُد وتفرقة عربية فى عام ١٩٦٧، كان شرخًا أمكن للعرب تجاوزه وعبوره في عام ١٩٧٣.

الثغرة على الجانب الآخر:

وإذا كانت الثغرة لم تنل كثيرًا من قدر انتصاراتنا في مراحل الحرب الأولى، فإنها على الجانب الإسرائيلي لم ترفع من شأن المؤسسة العسكرية الإسرائيلية التي فقدت هيبتها وسمعتها في بداية الحرب، وعلى سبيل المثال فقد ديان شعبيته الكبيرة التي كان يتمتع بها طيلة حياته الماضية، وأخذ يواجه الكثير من الهجمات، ومن المظاهرات التي ترأس إحداها الكابتن موتى أشكينازي الذي كان يقود إحدى

النقط الحصينة على البحر المتوسط (يعرفها الإسرائيليون بنقطة بودابست عند بور فؤاد)، حيث أخذ يدعو إلى إقالة ديان من منصبه كوزير للدفاع، ولعبت حدة المشاعر ضد ديان فى نهاية الأمر دورًا في إجبار رئيسة الوزراء جولدا مائير على الاستقالة، ثم انهيار حكومتها معها عندما تركت منصبها في الرابع من يونيو عام ١٩٧٤.

وكانت لجنة إجرانات قد أصدرت تقريرها الثاني الذي أوصت فيه بعزل رئيس الأركان الجنرال أليعازر، أما الجنرال جونين قائد الجبهة الجنوبية فسبق للجنة أن أوصت بوقفه عن الخدمة الفعلية في تقريرها الأول.

ولقد حدث كل ذلك رغم أضواء الدعاية التي ركزتها المؤسسة العسكرية على الثغرة أثناء الحرب، لتبدو وكأنها عمل بطولي فذّ، لدرجة جعلتهم يهللون لزيارة جولدا مائير للثغرة، مُعلنين على العالم أنها زيارة للقوات الإسرائيلية الواقفة على أرض إفريقيا.

كانوا يقصدون من وراء كل هذه الأعمال الدعائية، أن يغيروا من نظره شعبهم لهم ومن نظرة العالم لموقفهم من هذه الحرب.

يذكر كمال حسن علي، في كتابه مشاوير العمر، في يوم ٢٦ أكتوبر عام ١٩٧٣، أنه قام بزيارة الوحدات التي كانت تحاصر القوات الإسرائيلية في منطقة الثغرة، وعلى رأسها الفرقة الرابعة المدرعة، التي تم إمدادها بعدد كبير من الدبابات بعد إصلاحها، كما قام بزيارة

اللواء المدرع الجزائري، الذي بعثت به الجزائر دعمًا للجبهة المصرية، وقد تمركز فوق جبل غرة جنوب الثغرة، وكان المنظر من هذا الموقع لأرض المعركة يؤكد إمكانية تدمير القوات الإسرائيلية في الثغرة بسهولة، حيث كان طول المنطقة التي عبرت من خلالها القوات الإسرائيلية عبر قناة السويس لا تتجاوز ٧ كيلو مترات. ولقد قامت لجنة من الكونجرس الأمريكى بزيارة هذا الموقع بصحبة اللواء سعد مأمون يوم ٧ نوفمبر، وخرجت بانطباع يؤكد ضرورة إجراء تسوية سلمية لهذا الموقف، لأن القوات الإسرائيلية الموجودة في الثغرة أصبحت هي نفسها في حصار أوشك أن يكتمل.

لقد كانت حرب أكتوبر أول حرب حقيقية يشكل فيها التخطيط الجيد وإحراز المبادأة وتحقيق المفاجأة أمورًا جديدة على المفاهيم الإسرائيلية وعلى نظرة إسرائيل تجاه العرب. ولقد استخدمت مصر فيه الكثير من الأساليب المبتكرة، بل والمدهشة، مما ساعد على تحقيق النصر.

الفصل الثالث
مشوار جهاز الأمن القومى (المخابرات العامة)

فى إبريل ١٩٧٥ صدَرَ أمر نقل اللواء كمال حسن علي، لتولِّي وظيفة مساعد وزير الدفاع في القيادة العامة للقوات المسلحة، حيث بقي بها لعدة أيام. وفى الثامن من يونيو عام ١٩٧٥، صَدَرَ قرارُ تعيينه رئيسًا للمخابرات العامة، وهو يعنى أنه خلع ثوبه العسكري بعد أحداث حياة امتدت لـ ٣٥ عامًا، ويقول في مذكراته: إن فترة رئاسته للمخابرات العامة كانت من أكثر المهام التى كلف بها إجهادا للذهن وللأعصاب. وذكر أنه خلال بضعة أيام كان عليه أن يلتهم آلاف الصفحات من المذكرات والتقارير والكتب والأبحاث والمقتطفات.. إلخ، وفي سباق مع نفسه للاطلاع والمتابعة والمراقبة لكل ما يجرى من أحداث في الخارج والداخل، وخاصة ما يؤثر منها على الأمن القومي، ومع إجراء تحليل شامل للمواقف، ليس فقط من نواحيها العسكرية، وإنما من مختلف الزوايا الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأمنية.

مصاعب على الطريق:

يذكر أيضا كمال حسن علي، أنه أكثر ما عانى منه فى الأيام الأولى من تولِّي العمل لم يكن شيئا يخص صعوبات العمل أو تنوُّع

ميادينه أو مشاق طبيعية، وهي صعوبات يمكن التغلب عليها بالجهد والممارسة، وإنما كانت أشياء أخرى تخص الآثار النفسية السيئة التي لحقت بالجهاز والعاملين فيه على أثر ما وقع من محاكمات للسيد صلاح نصر وغيره من العاملين بالجهاز.

وبرغم ما بذل من جهود كبيرة من كل من سبقوه فى قيادة الجهاز لمحو الآثار المترتبة على نكسة ١٩٦٧ إلا أن تعيينه في الجهاز قد تواكب مع أحداث محاكمات أخرى لبعض أفراد الجهاز تتعلق بقضايا التعذيب، وبالذات قضية تعذيب مصطفى أمين.

وفي الحال، بدأ رئيس الجهاز العمل في أكثر من اتجاه، منها حل هذه الأوضاع في محاولة لتحسين سُمعة الجهاز، خاصة في قضية مصطفى أمين. وفى إطار اللقاء معه لإذابة السمعة التي كان يحملها عن الجهاز- قام بدعوة كل الكتاب ورجال الأعمال من الصحافة والإذاعة والتليفزيون في ١٨/٥/١٩٧٦ لزيارة جهاز المخابرات العامة، ليطلعوا على بعض مهام الجهاز وأعماله الحالية والسابقة.

وقد كان من الضروري أن يستعيد الشعب إيمانه بمهمة الجهاز، كما كان من الضروري أن يستعيد أفراد الجهاز إيمانهم هم أنفسهم برسالتهم، وهو ما عمل على تنفيذه رئيسُ الجهاز الجديد، وعمل على تشجيع الناس على الإقبال على الخدمة في الجهاز، خاصة بعد أن انخفضت نسبة أعداد الراغبين فيه، مما يُهدِّد بفقد قدراته.

التخفيف من سيطرة الجهاز:

في إطار مواكبة فكر القيادة السياسية في تخفيف إجراءات السيطرة التي كان معمولاً بها في الدولة حتى هذا التاريخ، تم إلغاء الموافقة التي كان يحصل عليها الموظف الحكومي أو الذي يعمل في القطاع العام، من إذن رسمي بمغادرة الجمهورية، من المخابرات العامة، للسفر في أي مهمة، سواء كان بمفرده ممثلا للحكومة أو ضمن وفد عام.

خطة خمسية للجهاز:

أجرى كمال حسن علي، تخطيطًا شاملاً لكي يستعيد الجهاز كامل عافيته للقضاء تمامًا على كل آثار نكسة ٦٧ والتي بذل كل من قبله جهدهم في معالجته. وشكّل لهذا الغرض لجنة مختلفة لوضع خطة خمسية نابعة من فكر وخبرة وطموحات الدرجات كلها، ولما تبلور كل ذلك في خُطة واضحة محددة المعالم قام باعتمادها من الرئيس السادات الذي وقع عليها يوم ١٩ يناير عام ١٩٧٦.

كان هدفه من اعتماد الخطة من الرئيس السادات أن يلتزم بتنفيذها كل من يتولى الجهاز من بعده، نظرًا لأن الجهاز كان يتبع رئيس الجمهورية مباشرة.

وظل كمال حسن علي، على رأس هذا الجهاز لمدة حوالي ثلاث سنوات، تولى تقريبا أثناءها- تنفيذ معظم هذه الخطة، خاصة فيما يتعلق بالأفراد، بعد أن زاد الإقبال على الالتحاق بالجهاز بعد تحسين صورته.

وفي عَهده تم إنتاج الفيلم السينمائي «الصعود إلى الهاوية» لزيادة وعي الجماهير بالنسبة لأمن الوطن والمواطن، وهي قصة حقيقية من قصص الجاسوسية التي كشفت عنها المخابرات العامة.

وفي الثالث من أكتوبر ١٩٧٨ عُين كمال حسن علي، وزيرًا للدفاع والإنتاج الحربى وقائدًا عامًّا للقوات المسلحة المصرية.

الفصل الرابع
مشوار وزارة الدفاع (الحربية سابقا)

أبلغ نائب رئيس الجمهورية السيد محمد حسني مبارك في ذلك الوقت، في الثالث من أكتوبر ١٩٧٨- كمال حسن علي، بتعيينه وزيرًا للدفاع والإنتاج الحربي والقائد العام للقوات المسلحة، وعليه أن يتوجه في اليوم التالي مباشرة لعمل التجربة النهائية للعرض العسكري الذي سوف يتم بعد ثلاثة أيام (يوم ٦ أكتوبر) في صحراء السويس.

عقب حلف اليمين، اجتمع مع الرئيس السادات، الذي كلفه بالسفر إلى واشنطن على رأس وفد التفاوض مع إسرائيل في المباحثات التي انتهت بتوقيع إتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية، وذلك عقب زيارة الرئيس السادات التاريخية للقدس في ١٩ نوفمبر من العام السابق ١٩٧٧.

وهذه المباحثات هي التى عُرفت فيما بعد باسم مباحثات بلير هاوس، وفي الاجتماع بالرئيس السادات كانت توجيهاته عن المباحثات والتي لم تزد عن عبارتين قصيرتين كانت بمثابة دستور لهذه المباحثات: «لا تفريط في الأرض ولا تفريط في السيادة».

وكانت أول رحلة للوفد المصري إلى واشنطن برئاسته في أكتوبر عام ١٩٧٨، وفي الطريق إلى الولايات المتحدة الأمريكية توقف في باريس للقاء وزير الدفاع الفرنسي للتباحث في شأن التسليح بعد أن قرر الرئيس السادات تنويع مصادر السلاح، حيث توقف الاتحاد السوفييتي تمامًا عن الإمداد لمصر بالسلاح من بعد أكتوبر ١٩٧٣.

وذكر كمال حسـن علي فى مذكراته أن المشكلات الرئيسية التي واجهت المباحثات كانت تقع في موضوعات رئيسية بعينها، وهي أولوية الالتزامات، والربط بين المعاهدة والحل الشامل، وتقدير القوات في خطوط الأمان المقترحة، وموضوع المستوطنات في سيناء، ثم بترول سيناء.

ويذكر أنه طوال فتـرة المباحثات، وعندمـا كانت الأمور تتطرق إلى النواحي العسكرية كان يجد نفسه موزَّع الخاطر بين اهتمامه بمهمته في رئاسة وفد المفاوضات وبين مسئولياته وواجباته كوزير دفاع، وحتى عودته إلى القاهرة من واشنطن طوال فترة الاثنين وأربعين يومًا لم يمارس عمله كوزير للدفاع منذ تعيينه، والتي قضاها في واشنطن على رأس الوفد.

وكان دورُه كقائد عام للقوات المسلحة يعني أنه المسئول الأول عن الحفاظ على درجات الاستعداد العسكري من كافة النواحي الفنية والعسكرية والمعنوية، كما كان من الضروري إعادة التوزيع



الرئيس الراحل أنور السادات وإلى يمينه الرئيس مبارك
وإلى يساره كمال حسن على

الاستراتيجي للقوات المسلحة بعد تأمين الحدود الشرقية لمصر، وذلك مع الاستعداد لكل المواقف والظروف التي ترتبها حالة توقيع معاهدة السلام، فهو سلام حذر إلى أن تتم كافة إجراءات الانسحاب الإسرائيلي.

وكانت توجيهاتُه عقب عودته للقاهرة التخطيط لمشروع استراتيجي، يتم من خلاله تطبيق كافة الأفكار والاحتمالات الممكنة، ثم كان عليه أيضًا أن يشكل مجموعات العمل التي ستقوم باستلام أجزاء سيناء في التوقيتات التي ستحدد لاستلامها بالتنسيق مع الجانب الإسرائيلي.

تكثفت المباحثات والزيارات على أعلى المستويات بين كل من مصر وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في الأشهر الأولى من عام ١٩٧٩، منها زيارة الرئيس الأمريكي للمنطقة في منتصف مارس، بعدها تقرَّر سفر كمال حسن علي إلى واشنطن على رأس وفد عسكري يوم ٣/١٦، لإتمام الاتفاق حول إجراءات الانسحاب من سيناء والمراحل الفرعية له.

تم تسليم إسرائيل للعريش في ١٩٧٩/٥/٢٥، وفي إطار عمل اللجنة العسكرية المشتركة بين البلدين والمقرر اجتماعها في ١٩٧٩/٧/٢٩ سافر كمال حسن علي، على رأس وفد عسكري، في أول زيارة لإسرائيل يقوم بها وزير مصري.

في ١٩٧٩/٤/٢٤ أعلنت الدول المشاركة في الهيئة العربية للتصنيع انسحابها، وهي: السعودية وقطر والإمارات، بعد توقيع معاهدة السلام وبدون سابق إنذار، مما يعني أن الهيئة بكاملها أصبح ملكيتها كاملة لمصر.

انتهت المرحلة الرابعة من الانسحاب، في نوفمبر ٧٩، والمرحلة الخامسة يوم ٢٥ يناير ١٩٨٠.

في ٢ فبراير ١٩٨٠ صدر قرار رئيس مجلس الوزراء بأن يرأس كمال حسن علي اللجنة العليا لتطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل، وقد تم- خلال ثلاثة شهور من بدء مفاوضات التطبيع حتى نهايتها رسميا في مايو ٨٠- توقيع تسع اتفاقيات.

وفي ٣٠ إبريل، وفي اجتماع مع الرئيس السادات في استراحة جزيرة الفرسان المطلة على بحيرة التمساح بالإسماعيلية، أبلغه الرئيس السادات أنه سيتم تعيينه في التغيير الوزاري الجديد نائبًا لرئيس مجلس الوزارة ووزيرًا للخارجية.

الفصل الخامس
مشوار وزارة الخارجية

في ٢٠ مايو عام ١٩٨٠، تم تشكيل حكومة جديدة، وتولى الرئيس السادات رئاستها، وشغل الدكتور فؤاد محيي الدين منصب نائب أول لرئيس الحكومة، وتولى كمال حسن علي منصب نائب لرئيس مجلس الوزراء ووزير الخارجية، وكان العمل في وزارة الخارجية له ظروفه الاستثنائية الخاصة في تلك المرحلة المشحونة بالأحداث، فهناك المقاطعة العربية التي كانت ترمي إلى فرض العزلة على مصر، ليس عن العرب وحسب ولكن عن باقي المجتمع الدولي.

لذلك كان الأمر يقتضي تحركًا دوليا مكثفا على مستوى العالم، في الوقت الذي كان فيه من الضروري استكمال تطبيق المعاهدة ببنودها المختلفة مع الاستمرار في مباحثات الحكم الذاتي، تمشيا مع اتفاق كامب ديفيد، هذا مع إرساء العلاقات المصرية الأمريكية على أسس سليمة، والحفاظ على علاقات بقدر الإمكان مع الاتحاد السوفييتي لإيجاد نوع من التوازن بين العملاقين.

ومنذ اليوم الأول لعمله في الوزارة، عقد مؤتمر خاص داخل الوزارة حضره كبار الدبلوماسيين والإداريين على السواء، أوضح فيه طبيعة

تلك المرحلة التي تحتاج إلى الاستقرار، وإلى المزيد من العمل، لمجابهة الظروف الدولية الجديدة، وضرورة تنمية العلاقات الثنائية مع كافة الدول.

وشمل العمل خلال تلك الفترة:

١- الاهتمام بالأفراد ومرتباتهم، لكي يُمكنهم الظهور بمظهر لائق بهم وبالبلد الذي يعملون به.

٢- التطوير في اتجاهات أخرى وبأساليب جديدة.

حيث كان تركيزه في ميزانية وزارة الخارجية في الخطة الخمسية الأولى لمجلس الوزراء الفترة من ١٩٨٢- ١٩٨٧ على أمرين:

- إيجاد مقر جديد للوزارة.

- ضرورة دعم الشبكة اللاسلكية والشفرة بالوزارة.

- مفاوضات الحكم الذاتى وذلك فى ظل التصريحات المتضاربة داخل إسرائيل.

هذا وقد سافر كمال حسن علي إلى واشنطن، لإجراء مباحثات يومي ٢، ٣ يوليو ١٩٨٠ بين رؤساء الوفود الثلاث.

وبالنسبة للجامعة العربية، فقد تقرر نقل مقر الجامعة إلى تونس عقب توقيع اتفاقية السلام بين مصر وإسرائيل في مارس عام ١٩٧٩، حيث صدر قرار رئيس الجمهورية بتعيينه مشرفًا على الجامعة العربية في مصر.

ويذكر الوزير كمال حسن علي، أنه خلال فترة عمله بوزارة الخارجية قام بنحو أكثر من ثلاثين زيارة خارجية، ومنها دول اضطر لزيارتها أكثر من مرة، وكان يستهدف من هذه الزيارات:

- تقوية أواصر العلاقات الثنائية في كافة المجالات السياسية والاقتصادية.
- ضمان عدم عَزْل مصر دوليًّا، من خلال الزيارات المتبادلة مع وزراء خارجية الدول ورَدًّا على زياراتهم لمصر.

وفي خلال هذه الفترة، تم التخطيط للانسحاب الإسرائيلي النهائي من سيناء في ٢٥ إبريل ١٩٨٢.

وفي منتصف سبتمبر ١٩٨١، وخلال زيارة لخمس دول شرق آسيا ومنها اليابان، تم التوقيع على اتفاق إنشاء مستشفى الأطفال في أبو الريش، كذلك تم الاتفاق مع جامعة كوكو شيكان على إهداء صالة مغطاة للألعاب اليابانية في نادي الزهور بمدينة نصر بالقاهرة.

هذا وكانت إسرائيل في عهد مناحم بيجين وبعد مقابلته للسادات في شرم الشيخ في الرابع من يونيو قامت إسرائيل بضرب المفاعل النووي العراقي في ٧ يونيو عام ١٩٨١.

العرض الأخير:

في ٦ أكتوبر ١٩٨١ كان كمال حسن علي، ضمن الحاضرين للعرض العسكري، وكان جالسًا في المقعد الرابع في المنصة على يمين السادات،

وكانت زوجته وابنتاه بصحبته في مقصورة السيدات، وكان ابنه بين المشاهدين، وكان يجلس إلى جواره المهندس عزّ الدين هلال نائب رئيس الوزراء ووزير البترول، حيث حدثت عملية الاغتيال. ثم اتجه مع الحاضرين إلى مجلس الوزراء حيث تم تعيين الدكتور صوفي أبو طالب رئيسًا مؤقتا للجمهورية، وفي قاعة اجتماعات مجلس الوزراء اتخذ القرار بتسمية النائب حسني مبارك رئيسًا للجمهورية. وفي يوم ١٢ أكتوبر تم الاستفتاء على رئيس الجمهورية في الموعد المحدد، وبإقبال منقطع النظير، فقد كان الجميع يتطلعون إلى الاستقرار.

ونجح حسني مبارك مباشرة في الإمساك بزمام الأمور، سواء على المستوى الداخلي أو المحيط الخارجي، وسَعَى لعودة التضامن العربي مع مصر، ورأى أن عودة السفراء العرب كان أمرًا متروكا للدول العربية نفسها، وكذا الأمر نفسه بالنسبة للجامعة العربية وإعادتها من تونس إلى مقرِّها في القاهرة كما يقضى الميثاق. ولقد ترك توقيت مناقشة هذه الموضوعات للمناسبات التي قد تفتح الطريق للقاءات مباشرة، مثلما حدث عندما قامت مصرُ بواجب العزاء في وفاة الملك خالد بالسعودية، وقد توجّه إليها بنفسه الرئيس حسني مبارك ومعه المشير أبو غزالة وزير الدفاع والدكتور مصطفى كمال حلمي وزير التعليم في ١٤ يونيو عام ١٩٨٢، ومثلما حدث بعد ذلك في مؤتمر عدم الانحياز الذى انعقد في مارس عام ١٩٨٣.

ولقد سبق أن أعلن حسني مبارك، في الساعات الاولى لتولّي منصبه، أن مصر مرتبطة وملتزمة بكافة المواثيق والمعاهدات والاتفاقيات التي سبق أن عقدتها، وجاء في كلمته في مجلس الشعب أن السلام ليس موقفا تكتيكيًا، ولكنه التزام استراتيجي، وأن مصر دولة عربية وإفريقية لا تنحاز إلى الشرق أو الغرب، وأنها ملتزمة بكافة التعهدات على طريق السلام وباستمرار مباحثات الحكم الذاتى للفلسطينيين وصولا إلى السلام الشامل في منطقة الشرق الأوسط، وفي المقابل تعَهَّدَ بيجين في نوفمبر عام ١٩٨١ بتمسُّك إسرائيل بالتزاماتها مع مصر وإتمام الانسحاب النهائي من سيناء في موعده المحدَّد.

وعقب وفاة السادات راحت إسرائيل تُبدي شكوكها وتخوفها من أن تقوم مصر بنقض معاهدة السلام، وهي الدولة التي عُرف عنها التاريخ أنها أول بلد وقع على معاهدة للسلام في العالم مع جيرانها المعتدين عندما جنحوا للسلم.

وفي يوم ٢٨ يناير عام ١٩٨٢، جاء إلى مصر هيج وزير خارجية الولايات المتحدة قادمًا من إسرائيل، ليطلب على لسان قادتها تعهدًا كتابيا من مصر باستمرار المعاهدة ونفاذ مفعولها.

وعندما تقابل هيج مع كمال حسن علي، ظهر أنه ينوي عرض ذلك الأمر على الرئيس حسني مبارك لطمأنة المسئولين في إسرائيل.

وعندما صاحب هيج في زيارته للرئيس مبارك وانتهت المناقشات الخاصة بترتيبات الانسحاب النهائي من إسرائيل وما يتعلق بمفاوضات الحكم الذاتي للفلسطينيين، أثار هيج موضوع شكوك الاسرائيليين وخشيتهم من عدم تطبيق المعاهدة بعد الانسحاب، وهنا ذكر له حسني مبارك أن المعاهدة موقعة بين دولتين وليس بين شخصين.

وتم الانسحاب النهائي من سيناء في الموعد المحدد في يوم ٢٥ إبريل ١٩٨٢ باستثناء طابا، ولكن لم يمض أربعون يومًا حتى قامت اسرائيل بعملية شاملة برية وبحرية وجوية اجتاحت بها الجنوب اللبناني في ٥ يونيو عام ١٩٨٢.

وفي ١٥ سبتمبر اجتاحت قوات سعد حداد الموالية لإسرائيل- تحت سمع وبصر إسرائيل- معسكريْ صبرا وشاتيلا، حيث قتل وذبح ١٤٠٠ فلسطيني معظمهم من النساء والأطفال والشيوخ.

وفي أوائل مايو عام ١٩٨٣، وقعت كل من لبنان وإسرائيل اتفاقا أمنيا يقضي بانسحاب الأخيرة من لبنان مع اتخاذ خطوات أمنية في الجنوب اللبناني، وألغي الاتفاق بعد ذلك.

كما وقعت مصر والسودان، في ١٢ أكتوبر ١٩٨٢، ميثاق التكامل بين البلدين، باعتباره طرحًا سياسيًّا جديدًا أساسُه التكامل بين مصر والسودان، وهدفه الأسمى التكامل العربي تمهيدًا للوحدة.

الفصل السادس

مشوار مجلس الوزراء

في أوائل مايو ١٩٨٤، في يوم من أيام شهر رمضان- وأثناء عمله في وزارة الخارجية- تلقى الوزير كمال حسن علي، دعوةً من الرئيس حسني مبارك لتناول طعام الإفطار في بيته بمصر الجديدة، ولم يكن مدعوًا معه سوى الدكتور فؤاد محيي الدين رئيس الوزراء، وبعد الإفطار بدأ الرئيس مبارك الحديث، بادئا بمفاتحة الدكتور فؤاد محيي الدين بأنه يرى الأنسب أن يتوجّه بنشاطه لمجلس الشعب مرشحًا لرئاسته، وأن يترك مجلس الوزراء بكل همومه، نتيجة مرضه، ليتولاه واحدٌ غيره، واستدار إلى كمال حسن علي، حيث فهم أنه المقصود بتولّي مهام هذا المجلس.

وبالفعل نطق الرئيس مبارك بالكلمات التي تعني أن يتولّى مسئولية رئاسة مجلس الوزراء عن الفترة المقبلة.

كان الإرهاق لا يزال واضحًا بعد ذلك على وجه فؤاد محيي الدين، عندما زاره كمال حسن علي بعد يومين في مكتبه بمجلس الوزراء، ونصحه أن يخلد للراحة.

الذي حدث بعد ذلك، أن ضرب فؤاد محيي الدين عرض الحائط بالخلود للراحة، بل وبكل نصائح أطبائه وأخصائيه، وراح يعكف

على دراسة ترشيحات الحزب الوطني ويفتح بابه لمقابلة أعضائه ومناقشة كل الموضوعات المتعلقة بالانتخابات النيابية لذلك الوقت، من دوائر وقوائم للحزب، وغير ذلك من الأمور التي تفتك بالسليم، فما بالك بالمريض؟!

أول وفاة في مجلس الوزراء:

وفي صباح يوم ٥ مايو ١٩٨٤- أي بعد أيام قلائل- دخل الرجل مكتبه كالعادة في مجلس الوزراء- وإن حضر متأخرًا بعض الوقت عن موعده اليومي، وبعد دقائق قلائل انطلقت صرخة من الحارس الخاصّ به، بعد أن فتح الباب ليقدم إليه الأوراق اليومية، فإذا بالرجل ملقى على وجهه وسط الحجرة الواسعة وقد تحطم مقعده بعد أن انكفأ عليه بكل جسده لحظة أن انتابته الأزمة الأخيرة التي أودت بروحه وقد فشلت معها كل المحاولات والإسعافات السريعة. وبعد أقل من ساعة كان الرجل يخرج محمولا فى سيارة إسعاف من مبنى المجلس وقد لفته ملاءة بيضاء.

الوزارة الأولى والوزارة الثانية:

ولقد ظلَّ بعد وفاة المرحوم فؤاد محيي الدين، يشرف على أعمال رئاسة المجلس، حتى أصدر الرئيس مبارك في ٥ يونيو ١٩٨٤، قراره الرسمي بأن يتولى رئاسة المجلس بالنيابة، علاوة على عمله نائبا لرئيس مجلس الوزراء ووزيرا للخارجية.

ولقد استمر العمل بنفس التشكيل الوزاري السابق حتى ١٦ يوليو ١٩٨٤، حين أصدر الرئيس مبارك قراره بتكليف كمال حسن علي



صورة تذكارية مع الرئيس مبارك لوزارة كمال حسن علي
عقب تشكيلها

بتشكيل الوزارة الجديدة، لتكون الوزارة رقم ١٠٦ منذ إنشاء أول مجلس للنظار في عهد الخديوي إسماعيل.

وقد أتاحت له هذه الفرصة متابعة مسيرة العام الثالث من خطة التنمية الخمسية الأولى ٨٢- ١٩٨٧، وكذا وضع الإطار العام لخطة السنة الرابعة من نفس خطة التنمية، فضلاً عن متابعة نتائج أعمال المؤتمر الاقتصادي الذي أمر الرئيس مبارك بعقده لمناقشة الأوضاع الاقتصادية في البلاد، فانعقد في فبراير عام ١٩٨٢، أي في صدر الشهور الأولى من حُكمه، لإدراكه بأن المسألة الاقتصادية تترأس كافة المشكلات الأخرى.

ومن أهم المشكلات التي واجهتها الوزارة:

- كان السرطان السكاني على قمة المشكلات.
- أنَّ شعب مصر يتكدَّس ويتزاحم أصلاً في الشريط الزراعي الضيق لوادي النيل.
- تمسك الدولة بسياسة الدعم، والذي كان يكلف الدولة ٤ مليار جنيه.
- مشكلة تسريح الدولة ٧٠٠ ألف مجند بعد الحرب في ١٩٧٤، وما تعانيه مصر من مشكلة البطالة نتيجة لذلك.
- اتهام المصري بأن مجمل إنتاجه في اليوم لا يزيد عن ٢٧ دقيقة.

ومن أهم الأنشطة التي تمت في عَهْد هذه الوزارة عقد مؤتمر اقتصادي مُوسَّع لاتحاد رجال الأعمال المصريين في ديسمبر ١٩٨٤، حضره ما

يقرب من ٥٠٠ رجل من رجال الأعمال، كما كان من أهم الانجازات أيضًا السعي نحو زيادة الاستثمار العربي والأجنبي بإزالة تعقيدات الروتين وتوفير جميع مستلزمات الإنتاج والتيسيرات واستكمال التحرر الاقتصادي.

الحفاظ على الأراضي الزراعية:

في إطار التنبيه إلى خطر تبوير الأراضي الزراعية وتجريفها بقصد نهب التربة الزراعية الصالحة للزراعة وتحويلها إلى أرض بور، كان أن أصدرت وزارته القانون رقم ١١٦ لسنة ٨٣ الذي يجرِّم هذا العمل، محافظة على الأرض الزراعية.

ومن أهم الأعمال الأخرى التي اهتم بها:

- الحفاظ على البيئة.
- الاهتمام بالمناطق السياحية.
- سيادة القانون وانضباط الشارع المصري.
- متابعة للمجلس القومي للسكان.

ونتيجة لتداعيات المرض عليه خلال الأيام الأخيرة من العمل، ففي أغسطس ١٩٨٥ قابل الرئيس حسني مبارك وقدَّم له استقالة الوزارة.

الفصل السابع

آخر المشاوير

بعد تقديم الاستقالة في أغسطس ١٩٨٥، توجَّه للعلاج في سويسرا، حيث أخطره الطبيب المعالج أن قدمه اليسرى تحتاج إلى جراحة إن عاجلاً أو آجلاً، والذي أخبره كمال حسن علي، أنه سينظر في ذلك آجلاً. وعندما عاد إلى القاهرة وجد أمامه عرضًا أن يشغل منصب رئيس مجلس الإدارة لبنكين كبيرين، ولكن أصر صديقه المرحوم أحمد عنان أن يشغل منصب رئيس مجلس إدارة البنك المصري الخليجي، بدءًا من يناير ١٩٨٦، حتى يُعطي لنفسه فترةً للهدوء والراحة، وقام في ذلك الوقت بمراجعة كتابه «محاربون ومفاوضون» وتسليمه للأهرام للنشر في أكتوبر ١٩٨٦.

إن رئيس مجلس إدارة أي بنك لا يتدخل كثيرًا في تفاصيل العمل التنفيذي التخصصي، بل يكتفى منه بالتخطيط ورسم السياسة العامة، مع التعرف أساسا على سياسة الدولة وتوجهاتها ومطالب التنمية فيها، ليشارك بخبرته في توظيف إمكانات البنك في المشروعات التي تساند في عمليات التنمية الحقيقية، وهذا بالفعل ما فعله وركَّزَ

عليه، فشجع البنك على المساهمة في كثير من المشروعات، خاصة تلك التي تقتضي إدخال تكنولوجيا حديثة في الصناعة- مثل صناعة الكباسات والمستخلصات الطبية وكثير من المشروعات التي اتخذت المدن الصناعية مقرًّا لها..

غير أن العمل البنكي هو أيضا العمل الذي يطلق عليه «فن المخاطرة»، ومن خلال السنوات القليلة التي عمل فيها بالبنك أدرك تمامًا ما يعنيه هذا الاصطلاح وما فيه من ضغط عصبي وانفعالي على المسئولين فيه، فأنتَ كرئيس مجلس إدارة لا تغامر بأموالك فحسب، وإنما أنت تخاطر بأموال المودعين معك، ومن هنا يكون الضغط النفسي كبيرًا، ويزداد حجمه بحجم المشروع الذي تغامر فيه، وكذا بعدد هذه المشروعات. وتظل تحبس الأنفاس حتى لحظة نجاح المشروع وإتمام سداده.

كان الدكتور إيكمان طبيبه المعالج قد سره كثيرا استقالة كمال حسن علي من عمله في الوزارة. وأخذ يشرح له في محاضرة طويلة كيف أن الروماتويد يعتبر على قمة الأمراض التى يسميها الطب بالأمراض السيكوسوماتية (أو الأمراض النفسية الجسدية) أي الأمراض التي تلعب فيها الانفعالات والغدد الصماء دورًا هاما في الإصابة بها- (كقرحة المعدة والسكر والربو والضغط العالي.. إلخ).

ولقد بدأ يفهم الكثير من معاني محاضرته المعقدة عندما بدأت الآلام تتربص به من جديد ويزداد معها التآكل والنخر في عظام المفاصل.

وعندما عاد إلى الدكتور إيكمان لكي يُقدم على الجراحة الأولى، رشح له أحد الأطباء المتخصصن في ميونخ، فأجراها في مارس ٩١، ويومها قال له: لا تتوقع أن تكون هذه هي الجراحة الأخيرة.

وبالفعل ذهب إليه مرة ثانية في العام التالي لإجراء الجراحة الثانية في قدمه اليمنى في نوفمبر ١٩٨٨.

أما الثالثة فكانت هذه المرة في الحنجرة والأحبال الصوتية، وأجراها في العام التالي مباشرة في مستشفى لندن بريدج، حتى كانت آخر جراحة له وكانت أكبرها وأخطرها، إذ استمرت ثماني ساعات ونصف الساعة، وكانت في فقرات الرقبة في مارس ٩١، وفي مستشفى جورج واشنطن بأمريكا استكمل العلاج، وهي نفس المستشفى التي طلبت منه زوجته آمال أن يحافظ على نفسه بها.

وعقب عودته، وفي ٣٠ يونيو ١٩٩١، قدّم استقالته من البنك في ختام مشاوير العُمر.

ولكنّ الشخص الذي تحمّل هذا المشوار الصعب والحافل لم يكن ليستطيع الامتناع عن النشاط والعمل فعقب ذلك كان عليه المشاركة في أنشطة أخرى منها:

١- مجلس العمل الدولي المشترك Interaction Council الذي يتكون من ٣٠ عضوًا من رؤساء الدول ورؤساء الحكومات السابقين، والذين يجتمعون مرة كل عام ليناقشوا بعض الموضوعات.

٢- عضوية مجلس أمناء الجمعية القومية للتنمية التكنولوجية والاقتصادية بمصر.

٣- عضوية الباجواش، وهي جمعية تبحث أساسًا في موضوعات السلام.

واستمر كمال حسن علي- رغم ذلك- في العطاء، حتى وافته المنية في ٢٧ مارس ١٩٩٣.

المراجع

- مشاوير العمر (أسرار وخفايا ٧٠ عامًا من عمر مصر فى الحرب والمخابرات والسياسة)- كمال حسن علي- القاهرة عام ١٩٩٣.
- شبكة Google على الانترنت.
- لقاءات مع من عملوا معه عن قرب، وأفراد الأسرة.

المحتوى

يصدر هذا الكتاب
بالتعاون مع
المجلس القومى للشباب



ينعم الإنسان بشعور
الألفة بينه وبين المجتمع
الذي يحياه ويحيا فيه،
حين يفتح أفقًا أمام
الحاضر والمستقبل،
باستيعابه المعلوم، وإدراكه
المجهول، وحين يقرأ لنفسه، ويقرأ للآخرين، فكل قراءة
تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات، وتمنحنا
طاقة الإمكان على تحسين الحياة، بأن نوظف معارفنا
لكل ما هو نافع ومفيد، فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى
ما يمكن أن نمتلكه في الحياة، ففي ظلها يزدهر عق
الإنسان، ووعيه المتجدد الحضور، فتتعدد لديه الإبداعا
والإنجازات، وينتج الموارد والثروة، ويصنع القوة، وتتس
أمامه كل المجالات. إن من يحسن القراءة يحسن ممارس
الحياة. لذا، كانت وستظل دعوتي أن نقرأ للحاضر.. أ
نقرأ للمستقبل.. أن نقرأ للحياة.

سوزان مبارك